كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 86 الأربعاء 3 تشرين الأول/ أكتوبر 2005

محمد أحمد عبد الولي

الأرض يا سلمى

رسوم مدحت شفيق





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

بيان صحفي

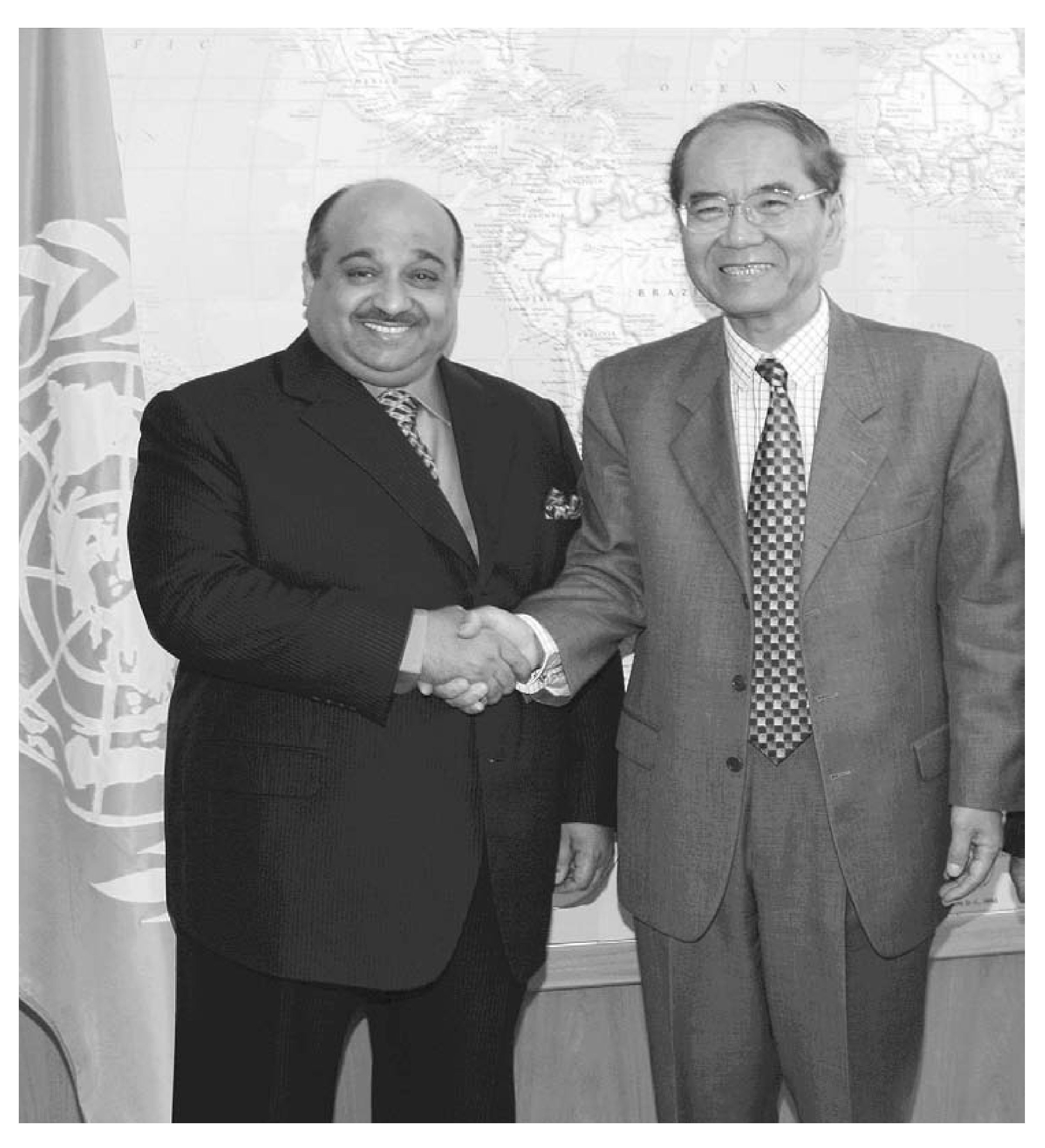
معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر مبعوثاً خاصاً لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) للحوار بين الثقافات والتربية وحقوق الإنسان

عيّن مدير عام اليونسكو، كويشيرو ماتسورا، معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر، مؤسس ورئيس مؤسسة «إم بي أي. فاونديشن»، في 18 آذار 2005 في مقر المنظمة بباريس، مبعوثاً خاصاً لليونسكو لحوار الثقافات والتربية من أجل الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان. وسيقوم الشيخ الجابر، بموجب هذا التعيين، بتمثيل مدير عام اليونسكو في جميع المناسبات العالمية في الميادين ذات العلاقة بالمواضيع التي انتُدب لها كمبعوث خاص للمنظمة.

جاء هذا التعيين تتويجاً لمسيرة الإنجازات المرموقة التي حققها الشيخ الجابر في دعم الحياة الثقافية العربية من خلال قيامه بالمبادرات الشجاعة والفاعلة في غمرة التحولات الكبرى التي تشهدها منطقتنا العربية. إضافة إلى إسهامات الشيخ الجابر المتنوعة في دعم التعليم العالي في مختلف الدول العربية واهتمامه الخاص بالعراق لمساعدته في إنجاح التجربة الديموقراطية وتجاوز الأزمة الراهنة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، الثقافية والتربوية .

وكان الشيخ الجابر مؤسس ورئيس مؤسسة «إم بي أي. فاونديشن»، قد وقّع عام 2003 بروتوكولاً طموحاً مع كويشيرو ماتسورا من أجل دعم العديد من المشاريع الثقافية والتربوية وبالأخص «كتاب في جريدة» وتطوير المناهج العربية ورفع كفاءات الهيئات التعليمية وتعريب الإنترنت.

إن الأهمية المطردة للدور البارز الذي يلعبه الشيخ الجابر في التصدي لكل ما يؤثر في الوضع الثقافي والتربوي في العالم العربي عبر نجاحه في إطلاق وقيادة عدد من المشاريع التي أثبتت جدواها وضرورتها، هي التي دفعت بالمنظمة الدولية ممثلة بمديرها العام إلى أن تخطو هذه الخطوة أملاً في المزيد من التعاون بين المنظمة الحكومية الدولية وبين «إم.بي.آي. فاونديشن» باعتبارها منظمة دولية أهلية تعمل على ترسيخ التعاون والتسامح طريقاً للسلام عبر التربية والعلم والثقافة والاتصال.



على اليمين: السيد كويشيرو ماتسورا، مدير عام منظمة اليونسكو
على اليسار: الشيخ محمد بن عيسى الجابر، رئيس مؤسسة MBI FOUNDATION

محمد أحمد عبد الولي

الأرض يا سلمى

تقديم: د. عبد العزيز المقالح

يرى الدارسون لفنون السرد الإبداعي، ان فن القصة القصيرة شأن فن الرواية أيضاً لا يحققان وجودهما في واقع جامد وغير مستقر، فهما بحاجة إلى مناخ أكثر استقراراً وتحضّراً من الشعر الذي يرافق الإنسانية في كل أطوارها، لذلك فقد تأخر ظهور القصة القصيرة في اليمن إلى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، مع إرهاصات بالغة الندرة، ظهرت في أواخر الأربعينيات من القرن نفسه. ويمكن لدارس هذا الفن في اليمن أن يرجع الظهور الحقيقي للقصة القصيرة إلى ما بعد قيام الثورة اليمنية سبتمبر ١٩٦٢م، ويربط بين ميلادهما صدور (الأرض يا سلمى) عن دار الآداب في بيروت عام ١٩٦٥م كأول مجموعة قصصية مكتملة الأداء.

محمد عبد الولي، هو رائد القصة الحديثة في اليمن. ولم تكن صفة الرائد التي تلحق باسمه دائماً اعتباطية، أو من باب إضفاء الألقاب على مَن لا يستحقها، وإنما كانت تقريراً عن حقيقة يعترف بها الجميع، فقد كان محمد عبد الولي القاص الأول ورائد هذا الفن دون منازع، فهو الذي وضع الأسس الحديثة في هذه البلاد لكتابة قصة ذات أفق جديد في أسلوب القص، وفي التقاط معطيات الواقع من خلال رؤية فنية ولغوية توحي أكثر مما تخبر، وتتعامل مع الرمز في أرقى مستوياته.

صحيح أن ثلاثة أو أربعة من الرواد الأوائل كانوا قد سبقوا محمد عبد الولي إلى كتابة القصة القصيرة، لكنهم لم يخرجوا عن طريقة السرد التقليدي الذي اشتهرت به القصة العربية في الثلاثينات والأربعينيات من القرن العشرين المنصرم، ولم يبلغوا ما بلغه من اتقانه لشروط هذا الفن، وتمثل لمقوماته الحديثة، فضلاً عن إمتلاكه لتقنيته الخاصة، في استخدام الرموز، وإعطاء القصة التي يكتبها معادلاً موضوعياً للحياة المباشرة وآخر رمزياً يجعل القارئ يشعر بالانتشاء حين الاهتداء إليه. ويلاحظ أن محمد عبد الولي يحاول أن يقترب برموزه كثيراً من القارئ الذي يشعر أنه يكتشف عالماً مبهراً، حين يهتدي إلى حقيقة الرمز، وما يخفي وراءه من دلالات فنية، تجعل القصة ذات بعدين أحدهما: واقعي مباشر، والآخر رمزي أبعد ما يكون عن المباشرة، وهو ما لا يجيده سوى كبار المبدعين في هذا الفن السردي.

لمحمد عبد الولي روايتان هما «يموتون غرباء»، و«صنعاء مدينة مفتوحة» وله أربع مجموعات قصصية هي «الأرض يا سلمى»، و«شيء اسمه الحنين»، و«العم صالح»، و«ريحانه». والمجموعة الأخيرة صدرت أخيراً عن «اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين»، وتضم مجموعة من القصص التي لم تنشر أو التي تم نشرها في الصحافة ثم لم تضم إلى أي من مجموعاته الثلاث، وفي هذه المجموعة ما يمكن اعتباره وثائق إبداعية ذات مدلول خاص لفهم تطوره الإبداعي، وتراكم خبراته في مجال هذا الفن السردي البديع. وهناك من يقول إن له رواية لم تتم، وأعمالاً قصصية أخرى كان يعدها للنشر وربما احترقت في الحقيبة التي رافقته في رحلته الفاجعة على الطائرة المشؤومة.

الذين عرفوا المبدع محمد عبد الولي مثلما عرفته يدركون أنه كان إنساناًمسكوناً بهذا الفن السردي، ومغموراً بأضوائه، وكأنما ولد ليكون قاصاً وروائياً، فقد كانت له قدرة فائقة على القص حتى في أحاديثه العادية، التي تأتي عفوياً ومعبرةً عن تجارب حية نابضة، وقادرة على أن تسرقك من نفسك، ومن مشاغلك بسهولة نادرة، ودون أن تشعر بأقل قدر من الملل. وهنا في صنعاء، وهناك في القاهرة، وبرلين كانت لنا لقاءات يتحول فيها المبدع الراحل إلى سرد ماهر يشدك بصوته العذب، وبما تحتشد به أحاديثه من حكايات، وذكريات، وأفكار ذات صلة بالواقع، والتاريخ والفن والأدب.

بدأ محمد عبد الولي رحلته مع القصة القصيرة في منتصف الخمسينيات، وهو طالب في مدرسة «المعادي» الثانوية وهي إحدى ضواحي القاهرة. وكانت مدرسته الأولى، بالإضافة إلى ما يقرأ مما تنشره المجلات والصحف من قصص، مكتبة صغيرة في طرف الحديقة اليابانية الشهيرة في «حلوان» حيث كان يمضي الساعات الطويلة منكباً على قراءة كل ما تضمه المكتبة، وفي عالم القصة بخاصة.

المجموعة التي بين يدي القارئ الآن «الأرض يا سلمى»، هي أولى الأعمال المنشورة للرائد محمد عبد الولي، وتضم قصتين من محاولاته الأولى كتبها، وهو طالب في القاهرة. وإذا كان لكل كاتب فنان ثيمته أو موضوعته التي تدور عليها أغلب أعماله، فقد كانت الثورة هي تلك الثيمة أو الموضوعة التي يتوسل الوصول إليها عن طريق الحديث في قصصه ورواياته كثيراً عن الهجرة والمهاجرين، وعن الأرض التي تركوها لنسائهم حيث يواصلن الحرث، والسقي، والبذار، والحصاد. وفي قصة «الأرض يا سلمى» التي صارت عنواناً للمجموعة، يغوص قلب الإنسان في الأرض كما تغوص المياه، ويسقيها بالدموع والدم كما تسقيها الأمطار.. وفي هذا الصدد يمكننا القول بأن القصص التي كتبها محمد عبد الولي عن المغتربين، وهي كثيرة، لا توحي بأي قدر من التعاطف مع هؤلاء البؤساء النازحين الذين أبعدتهم الظروف القاسية عن الوطن مضطرين حتى غدت هجرة اليمنيين ظاهرة اجتماعية شائعة في العهد السابق، علماً بأنه ابن واحد من هؤلاء المهاجرين، وأنه ولد في المهجر، وربما كانت معاناته تلك سبباً في إدانته للغربة والمغتربين وكراهيته للهجرة، وإلى ضرورة تمسك الإنسان بأرضه تحت كل الظروف، إذ لا قيمة لإنسان لا أرض له، ولا مكان ينتمي إليه، إنه يظل غريباً في مهجره بلا جذور كالمعلق في الفضاء.

وصاحب هذه المجموعة القصصية لا يبخل على المهاجرين بتعاطفه وحسب، وإنما يتهمهم بالجبن والتخاذل، كما في قصة «الأرض يا سلمى». وقصة «على طريق أسمرا».

ذلك هو محمد عبدالولي الفنان الإنسان الذي رحل عن أربعة وثلاثين عاماً، أي في قمة العطاء، وفي حادث طائرة ما يزال ملف سقوطها الغامض مفتوحاً ولم يقفل بعد.



- من مواليد ١٢ نوفمبر ١٩٣٩م بمدينة دبربرهان (أثيوبيا) والده يمني وأمه أثيوبية.
- درس في مدرسة الجالية اليمنية في أديس أبابا.
- زار اليمن أول مرة وعمره ٦ سنوات عام ١٩٤٦م ولفترة قصيرة.
- عاد إلى اليمن في المرة الثانية عام ١٩٥٤م وتزوج في نفس العام.
- سافر إلى القاهرة للدراسة في عام ١٩٥٥م.
- طرد من مصر في يونيو عام ١٩٥٩م بتهمة الإنتماء إلى (اليسار).
- سافر إلى موسكو ودرس في معهد جوركي للآداب.
- عاد إلى اليمن بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م.
- اشتغل في عدة مناصب في مكتب رئيس الجمهورية ثم قائماً بأعمال سفارات الجمهورية العربية اليمنية في موسكو وبرلين ومقديشو. وأخيراً مديراً عاماً لشركة الطيران اليمنية.
- أسس الدار الحديثة للطباعة والنشر بتعز.
- سجن لمدة عام في ١٩٦٨م ثم ثمانية أشهر في عام ١٩٧٢م.
- له من زوجته المرحومة "مُتَتلّي": أيوب، بلقيس. ومن زوجته السويدية: سارة، فاطمة.
- نشر مجموعته الأولى "الأرض يا سلمى" في عام ١٩٦٦م و"شيء اسمه الحنين" في عام ١٩٧٢م.
- توفي في حادث انفجار طائرة كانت تقل دبلوماسيين من جنوب اليمن بتاريخ ١٩٧٣/٤/٣٠.

مدحت شفيق

مدحت شفيق فنان مصري من مواليد عام ١٩٥٦. انتقل إلى إيطاليا عام ١٩٧٦. درس الفن في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة ميلانو وحصل على دبلوم في الرسم والسينوغراف. وهو من الفنانين العرب البارزين على المستوى الايطالي والأوربي. تميز بأسلوب تعبيري خاص يقترب من مدرسة التجريد الغنائي أو اللاشكلي واستطاع أن يستفيد من تقنية فناني الطليعة الغربيين. في ألوانه وأشكاله الغنية حاول المزاوجة بين الفن الشرقي وآخر ما توصل إليه الفن الغربي في مختلف تقنياته. ولقد كلل جهوده ونجاحه هذا مشاركته في بينالي فينيسيا عام ١٩٩٥ ضمن الجناح المصري الذي حصل على جائزة الأمم باعتباره من بين أحسن الأجنحة المشاركة.

وأعمال الفنان مدحت «غنية بمؤشرات بصرية وحكايات تحيلنا إلى تقاليد وثقافة شفاهية تعكس فكر وشاعرية الفنان» كما أشار الناقد «بيير رستاني». والأمر هنا يتعلق بهذا اللقاء بين ثقافتين: الشرقية والغربية الذي يتم بنجاح عبر مؤشرات وعلامات وخطوط وألوان تمتزج دون تنافر في العمل الفني. وقد حصل الفنان على العديد من الجوائز التكريمية نذكر منها: جائزة Alcatel في بينالي الفن المعاصر الثامن في القاهرة، وعرض أعماله الفنية في أهم الغالريات الأوربية في إيطاليا، ألمانيا، بلجيكا، فرنسا، هنغاريا وغيرها. وهو الآن يعيش متفرغاً للعمل الفني في مدينة «أوبيرا» (ضواحي ميلانو).

فوزي الدليمي

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَّر
بيروت، لبنان
* **يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة**

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه. محامون"

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول



كتاب في جريدة
العدد الواحد والعشرون
التسلسل العام: عدد رقم 86
(3 تشرين الأول 2005)
ص.ب 1460-11 . بيروت، لبنان
تلفون/فاكس 630 248 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

الأرض يا سلمى
محمد أحمد عبد الولي

الغول

-١-



الرياح تعصف في الخارج بشدة يا صديقتي، فاقتربي مني لأحكي لك قصة.. إصغي إليّ جيداً.. لأنها قصة، سمعتها عندما كنت طفلاً ويسمعها كل أطفال قريتي الآن لأنها قصة إنتصارنا.. إنها عن الغول في جبلنا.

لا أدري متى تبدأ القصة، ولكنها تقول إن الغول إستوطن جبلنا حيث وجد غاراً كبيراً ومخيفاً.. لقد أصبح هذا الغار اليوم مرتعاً للحب.. عند رعاتنا.. وفي هذا الغار نسجت يا صديقتي.. أول حب.. وأول قبلة.

في هذا الغار الكبير والمخيف كان يعيش الغول لا أحد يدري من أين أتى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ولا أحد رآه وهو يصطاد فريسته.. ولكن الجميع رأوا بقايا ضحاياه.. وآثار جرائمه الكثيرة في الطريق بين قريتنا والجبل.. ونسجوا حوله الأساطير، قيل أنه لا يموت.. وقيل أنه لا يتأثر بالرصاص وقيل أنه أتى إلى جبلنا لينتقم منا بعد أن غضب علينا الرب..

أي سخافات قالوها.. وأي تفاهات رددوها يا صديقتي لكنهم معذورون لأنهم جهلة.. أنت تعرفين ناس قرانا جبناء إذ هم متفرقون.. وعباقرة وهم متحدون..

لقد قيلت يا صديقتي أحاديث كثيرة زادت من خوفهم، هل تتصورين هذا؟ ينسجون أحاديث ويصدقونها.. لقد أصبح الغول ملك الجبل بلا منازع لأنهم كانوا جبناء. وعند كل صباح كان الغول يرسل من مغارته المخيفة عظام ضحاياه من حيوانات تعيسة وبشر ساقهم حظهم التعس إلى فكّيه فلم ينجوا. وفي الليالي المظلمة كان الغول يغزو قريتنا ويحطم أبواب حظائر الماشية ويحمل ما يشاء ويعود إلى الجبل ولا يستطيع أحد أن يقف في طريقه.. لقد كان كل شيء مباحاً له يا صديقتي.. بمنطق القوة.. وبالأساطير التي تنسج حوله مع كل ضحية. إنه لا يموت في نظرهم فلماذا يقاومونه؟!

لماذا يتعبون أنفسهم في شيء يخيل لهم إنهم متأكدون منه؟ لماذا يناضلون ضد أساطيرهم؟

ومضت الأيام والغول يزداد سيطرة.. وتزداد ضحاياه. ويصبح ملك الجبل وملك القرية.. بل ويملك أيضاً أرواح أولئك الذين جثوا أمامه.

وبمرور الأيام كانت أساطير جديدة تظهر وأحاديث العجائز تدور حول الغول.. والغول فقط. حتى الأطفال كانوا يرددون ببلاهة أحاديث العجائز وعيونهم معلقة بالجبل.

الرياح تعصف بشدة.. والعاصفة على الأبواب، والمدفأة قد خلت من الحطب يا صديقتي فاقتربي مني.. إقتربي مني.. فالغول قد جعل كل شيء مخيفاً.. غير محتمل.. أسطورياً.. وتحول الجبل إلى مكان مجهول لا تطأه قدم إنسان.

آه الرياح الباردة تذكرني بالخوف الذي كان يسيطر على أهل القرية وهم يغلقون أبواب منازلهم قبل أن تغيب الشمس.

-٢-

في ذلك الوقت والغول يسيطر على كل شيء كإله جديد على الأرض كانت إمرأة.. مجرد إمرأة عادية.. وأم.. تعيش في القرية وكان إسمها هند.

لم يكن أحد يهتم بوجودها، فهي فقيرة والناس لا يهتمون كثيراً بالفقراء، فهي قد فقدت كل ما تملك من مال وأرض وحلى.. كل شيء لتهب إبنها الوحيد الحياة.. نعم يا صديقتي: كان لها طفل صغير في العاشرة تركه لها زوجها الذي مات في أعماق البحار.. لقد كان أحد مغامري بلادنا الشجعان الذين يوجدون في كل مكان وفوق كل بحر.. لقد صنع بحارو بلادنا يا صديقتي.. تاريخاً لنا عظيماً.. تاريخاً منسياً لا يعرفه أحد.. سوى البحر نفسه.. آه كم هم عظماء أولئك الذين يموتون بصمت بعد أن يخلفون مآثر..

لقد مات وترك زوجته وطفله.. ومرض الطفل فباعت الأم كل ما تملك.. وصلّت.. ودعت.. وزارت قبور جميع الأولياء ولكن أبواب السماء لا تريد دعاء.. ولا زيارة الأولياء.. إنها تحتاج إلى عمل كي نخضعها لنا.. لكن هند.. المسكينة لم تكن تعلم ففقدت كل شيء ولم يبق لها سوى شيء واحد: جسدها. وأرادت بيعه في سوق الرقيق إلا أن القرية وأي قرية صغيرة في قرى بلادنا ليس فيها متاجر لبيع الرقيق. ثم إنها لا تملك الجمال، ذلك الشيء الرائع.. الإلهي. إنها امرأة عادية والمرأة العادية لا جمال لها سوى قلبها. سوى عملها. سوى نضالها، وهذا الجمال لا يباع مطلقاً في سوق الرقيق. هذا هو الجمال الذي كانت تملكه هند يا صديقتي.

وفقدت الأمل.. ولم تجد إلا أن تجلس بجانب إبنها الصغير تغسل وجهه المصفر بدموعها الغزيرة..

ألا تزال الرياح في الخارج تصفر يا صديقتي؟ إنني لم أنتهِ بعد من القصة..

-٣-

هناك أمر عجيب يصنعه الإنسان ذلك العظيم. يصنعه دائماً دون تخطيط مسبق. لقد بدأت هند وهي تسكب دموعها الغزيرة تخلط بين الواقع والخيال، فحلمت أن دواء ابنها الوحيد يوجد هناك، في المغارة.. في الجبل حيث ينام الغول.

الدواء هو قلب ذلك الغول القاسي.. هو القلب الذي نبض بدماء الآخرين.. في ذلك القلب كان الدواء.. فلم تفكر هند كثيراً ووجدت نفسها دون أن تدري أمام باب المغارة. إن القوة العجيبة، قوة الأمومة التي لا نستطيع أن نعبر عنها بكلماتنا البسيطة، قد دفعت بهند، تلك المرأة المحطمة، الضعيفة والفقيرة، إلى باب من سيطر خوفه على قلوب كل رجال قريتنا في سبيل أن تحصل على الدواء.

لقد قتلت هند الأسطورة.. لم يصدق الغول أن إنساناً ما يتجرأ وينتهك حدوده ويأتي إلى عقر داره.. ورأى ذلك تحدياً لقوته وهيبته، فهب من داخل مغارته.. وكم كانت دهشته عظيمة حين رأى أمامه امرأة صغيرة صفراء اللون.. ضعيفة وهزيلة تكاد من فرط ضعفها أن تسقط أرضاً.. لكن ذلك زاده غيظاً إذ وجد أن الذي هتك هدوءه ووحدته وأسطورته ليس سوى امرأة، وليس إنساناً آخر أقوى منها. وشعر بأن كرامته قد جرحت وأهينت..

لكن هند لم تخف بل إزدادت قوة وجراءة حين رأت الغول.. وبدأت تجمع شجاعتها وعزيمتها حتى تخرج من مكانها منتصرة لتوصل الدواء لإبنها.

كانت الشمس تشع بقوة.. والأشجار تتراقص في طرب، والعصافير الصغيرة على الأغصان تغرد بشجو وهي ترى الإنسان يتحدى قدره، ويحطم الأسطورة التي صنعها بيده. وأراد الغول أن يسأل المرأة الجسور التي حكمت بتصميمها وإرادتها أسطورته عن سبب مجيئها، ومجابهته يا صديقتي دون خوف:

ـ يا غول.. كن مَن شئت ومهما كانت قوتك فإنني أمّ أبحث عن دواء لإبني؛ وقد علمت أن الدواء ليس سوى قلبك، لذلك أتيت لآخذ الدواء أردت أم لم ترد..

تجمّع كل غضب الدنيا في تلك اللحظة في وجه الغول وهو يسمع ما تقوله المرأة.. إنها تتحداه علناً.. إنها تستهين به؛ فقال وهو يحاول أن يكون صارماً، مخيفاً، أسطورياً:

ـ إسمعي أيتها العجوز! أنت أول من حطم صمتي.. ومن تحدى قوتي. وقد أقسمت أن أحطمك.. أن أجعلك.. سخرية للجميع. إني لن أترك لك أثراً على هذه البسيطة.

لكن هنداً كانت قد حطمت نهائياً الأسطورة في قلبها وشعرت بأن عليها أن تقاتل إن أرادت أن توصل لإبنها الدواء..

أما أن تخاف.. أن تتذلل فذلك معناه هلاكها.. فلم تهتم كثيراً بما قاله الغول، بل ابتسمت ساخرة وفي عينيها يتطاير شرر الكراهية والبغض لذلك المخلوق الذي بذر الخوف في كل مكان وقالت:

ـ إنك لست سوى مخلوق تافه.. صنع الآخرون أسطورتك فصدقتها أنت وصدقها الأغبياء، في القرية.. إنني.. سآخذ قلبك.. سواء أتركتني بهدوء أم لا. إني مستعدة لآخذ ما أريده بالقوة..

حاول الغول أن يقهقه، لكن قهقهته كانت ميتة، جامدة باردة، وشعر أن عليه أنه يعمل شيئاً قبل أن ينهار.

ـ إنك أيتها العجوز لا تقدرين قوتك.. لعل الجنون قد دفع بك إلى هذه المخاطرة.. إنهني رحمة بك سأسامحك هذه المرة.. إنك أمام مَن خضعت الرقاب له.. أمام ملك الجبل والقرية، أمام مَن انتصر على الجميع.. أمام مَن لا يموت..

كان يعرف أنه يكذب، وكانت هند تعرف ذلك أيضاً:

ـ مَن أنت حتى يخافك البشر؟. مَن أنت حتى نضع رقابنا تحت قدميك؟

آه يا صديقتي لو رأيت هنداً وهي تتخذ طريقها إلى قلب الغول! لو رأيت الخوف يتجمع مرة واحدة في وجه مخلوق واحد.. الخوف والشجاعة..

لقد تأكد الغول نهائياً أن أسطورته ستنهار إذا لم يصمد أمام هذه المرأة.. لكن ماذا نقول لَمن قد تملكه الخوف، كل الخوف، وهو يرى الشجاعة أمامه!. إن الأم تتحداه. الإنسان يتحداه بشجاعة.. بصموده الرائع أمام التفاهات.

وهجم الغول وكله خوف.. فتلقته هند وفي عيونها روعة الإنسان في قمة شجاعته.

آه لو ترين ملحمة الإنسان الخالدة.. وهو يناضل من أجل غده، من أجل أن يعيش آخرون سعداء..

آه يا صديقتي لو رأيت هنداً وهي تقاتل ذلك الغول، ذلك الأسطورة التي تحطمت لكي تعود إلى ابنها لتهبه الحياة..

كل شيء كان يتساءل: مَن سوف ينتصر؟ الإنسان.. أم الغول.. العصافير توقفت عن صداحها والشمس تحملق وقد علتها الصفرة والأشجار توقفت عن الإهتزاز والرياح قد حبست أنفاسها.. حتى الجبل الذي كان خاضعاً للغول.. كان قد أمسك قلبه بيده منتظراً خلاصه من العبودية.

وسالت الدماء.. وصرخ الغول يا صديقتي. لقد إنهزم. وغنّت الطبيعة أنشودة الخلاص. أنشودة الروعة.. ورقص الجبل رقصة شعبية على أنغام هبوب الريح.. وصداح العصافير.. وكانت الشمس تمد يدها الذهبية محيية إنتصار هند..

وقامت هند وقد تمزقت ملابسها السوداء وسالت الدماء من كل جزء من جسدها الفتي.. جسدها الذي كان في تلك اللحظة أجمل ما في العالم – شهادة شجاعة الإنسان.. وشعرها الأسود الناعم الذي لم تهتم به يوماً من الأيام كان قد استرسل على كتفيها وقد سالت عليه قطرات دم. ونظرت حولها وهي تحمل في يديها قلب الغول.. ومضت بسرعة إلى القرية.. إلى ابنها وكل شيء حولها يغني ويرقص.. وبجانب بوابة المغارة.. تمدد ملك الأمس.. وفي القرية في زاوية مظلمة.. من منزل صغير متهدم.. كان إنسان الغد يتحرك.

لقد انتهت العاصفة يا صديقتي وانتهت قصتي..

دعينا نتعانق.. لقد إنتصرنا.. يا صديقتي، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية على جبلنا.. والسماء تضحك طرباً.. دعينا نبتسم.. دعينا نبتسم.



كان الفصل هادئاً.. وثلاثون طالباً يتنفسون بهدوء وينظرون بعيون قلقة إلى الباب.. فبعد دقائق سيدخل المدرس ليلقي آخر دروسه.

في الأيام العادية، وفي مثل هذه اللحظات، يكون الفصل كامل الفوضى: يتقاذف الطلبة بالطباشير ويصيحون متلفظين بكلمات بذيئة. وقد تجد أحدهم في إحدى الزوايا يعبئ فمه ببقايا رغيف بينما عيون نهمة تتابع حركات يديه وفمه. وقد يحمل طالب آخر كرسياً يقف عليه أمام السبورة ليكتب شيئاً يجول في خاطره بخط صغير ضعيف، ويقهقه آخر وهو يصحح له أخطاءه، وإذا دخل المدرس فجأة يأخذ الضجيج في الخفوت والطلاب يتدافعون وهم في طريقهم إلى أماكنهم. ويسود الهدوء وتكون العيون قلقة حائرة.. وخائفة، عيون تشعر بذنبها لكنها بعد خروج المدرس بلحظات تعود إلى العمل نفسه.

أما اليوم فالأمر يختلف.. فالجميع يجلسون بهدوء وصمت عميق، وعيونهم الصغيرة المتطلعة دائماً بفضول تنظر بحيرة إلى الباب والسبورة وكرسي المدرس الخالي.

كل طلبة الصف السادس يجمعهم اليوم لأول مرة شعور واحد بقلق حقيقي.. بالهيبة أمام هذا الدرس الأخير.

منذ عام دخل الفصل مدرس شاب في السادسة والعشرين و شارب صغير وأنيق ونظارات تبدو خلفها عيون شابة حالمة، قوية وواثقة من نفسها، وصلعة صغيرة تزحف بهدوء لتسيطر على الرأس ذي الشعر الأسود..

كان هذا المدرس في ذلك اليوم بالنسبة للطلبة شخصاً غريباً لكنه أصبح حبيباً قريباً إلى قلوبهم فيما بعد. لم يكونوا يتوقعون أن يأتي يوماً يجلسون فيه بهذا الهدوء.. هدوء المأتم ليودعوا مدرسهم بصمت يملأه الاحترام والغضب. لماذا؟ نعم لماذا يجب أن يودعوا مدرسهم؟ أنهم يحبونه أكثر من حبهم للمدرسة نفسها.. الدرس الوحيد هو درسه الذي لا يغيب فيه أي طالب.

كانت كلماته تنبع دائماً من القلب بصوت هادئ رزين وعميق لتستقر في تلك القلوب الصغيرة المملوءة حباً للحياة، قلوبهم التي فتحها المدرس لتشرف على عالم واسع، فمن فمه سمعوا لأول مرة كلمات جديدة.. الشعب.. الأمة والوطن، وكيف يجب أن يحبوا الجميع. حقيقة أنهم سمعوا الكلمات نفسها من مدرسين آخرين



ومن آبائهم وهم يقرأون الصحف، لكنهم سمعوها منه بمعان جديدة وجميلة.
لم تزل العيون متعلقة بالباب والمدرس لم يدخل بعد. إنهم يشعرون لأول مرة بحاجتهم إليه.. إلى أحاديثه وإلى صوته الحزين. لماذا تأخر؟ لم يتمنوا مرة واحدة أن يغيب عنهم. إنهم لا يصدقون مطلقاً أنه سيودعهم واليوم بالذات وربما إلى الأبد. لن يروه بعد اليوم في فصلهم.. لن يسمعوا صوته.
وفتح الباب بهدوء.. لم يشعر أحد متى دخل المدرس ولم يشعر هو متى قام الطلبة لتحيته.. دخل بهدوء ونظر إلى الجميع وابتسامة حزينة على وجهه وعيونه المتألمة.. ومرت لحظات التقت خلالها عينا المدرس بعيون كل الطلبة في تحية صامتة.

ـ اجلسوا.. إجلسوا.
لكن الطلبة ظلوا واقفين، وابتسم المدرس وجلسوا بعد أن جلس هو على كرسيه.
عادت الذكرى بالطلبة من جديد إلى اليوم الأول حين دخل المدرس الفصل.. لقد سمعوا عنه كثيراً قبل أن يصبح مدرساً لهم. سمعوا عنه وقرأوا له قبل أن يروه.
وكم كان فرحهم حين علموا أنه سيكون مدرساً لهم ومدرساً للتاريخ. دخل في ذلك اليوم وعلى شفتيه ابتسامة لم تكن حزينة كتلك التي يرونها اليوم. إنهم يتذكرون جيداً كيف بدأ درسهم الأول وقد تحدث إليهم كأنه أخ... أخ أكبر منهم لم يفرض عليهم أحترامه ولكنهم وجدوا أنفسهم يحترمونه وهو يخط على السبورة بأحرف أنيقة عنوان الدرس الأول «تاريخ اليمن».
لم يحدثهم عن الأشياء التي كتبت في الكتب المدرسية وإنما قال لهم أشياء جديدة عن حضارات قديمة، عن أصالة شعب، صنع حضارات وبنى سدوداً وأقام في بلاده جنة صغيرة، صنع – اليمن السعيد –
ومن التاريخ القديم عاد إلى الحاضر، وبهدوء تحدث أكثر فأكثر عن بلادهم المقسمة، إلى شمال وجنوب.
وها هم اليوم يلتقون في الدرس الأخير في فصلهم الصغير ذي الجدران القديمة، والنوافذ الواسعة وذكريات عام كامل تتماوج في خاطره وفي خاطر كل طالب والمروحة المعلقة في منتصف الصف تدور في هدوء.



الشمس تثير الصداع في الرؤوس التي انحنت بالمئات نحو الأرض لتحمل الحجارة وتقذفها على جانبي الطريق وتندفع سريعة في كل الاتجاهات. والجبل الكبير ينام بهدوء وكبرياء أمام تلك الأيدي التي تشق الطريق إلى الأمام. وترتفع رؤوس من انحنائها لتمسح العرق وتنظر بعيونها إلى بقعة معينة تحت أقدام الجبل حيث تجمع البعض يقيسون.. ويرفع بعضهم نظره نحو قمة الجبل ويبتسم لتعود الرؤوس في الانحناء من جديد وتضرب الأرض بقوة وعنف وأهات متفرقة ترتفع مع انخفاض المعاول التي تغوص في أعماق الأرض الصلبة.

رفع – على التهامى – رأسه للمرة المائة ونظر إلى الجبل وهو يهز رأسه كأن شيئاً يقلقه.. لا يستطيع هضمه. وكذلك كان زملاؤه. ويمر أمامه بسرعة أحد هؤلاء الرجال القصار ذوي العيون الصغيرة والتي كان – على التهامى – يتخيل أن سكيناً قد شقّت أجفانها، وذوي الشعر الأسود اللامع الذي يتهدل دائماً فوق وجوههم.

ويبتسم علي التهامى بمرح وهو يرى الرجل يسرع وبيده حبالٌ غليظة.. كان كطفل صغير حبيب في نظره.. بل انه كان ينظر إلى جميع هؤلاء الرجال القصار كأطفال لا يتعدّون العاشرة من عمرهم.. لكن الأعمال التي يقومون بها كانت أكبر من أن يصدقها علي، الرجل القبلي الذي عاش سنواته الأربعين بين رمال تهامة وراء الجبال مع شيخ قبيلته أينما كان في معركة لنصرة إمام.. أو لسرقة قافلة.

وعلى مياه البحر الأحمر كبحّار على سفينة شراعية تحمل كل شيء وتقف أمام أي شاطئ..

كان علي التهامى مغامراً، لكن هؤلاء الأطفال الصغار الذين أقبلوا من الصين ليساعدوا بلاده في بناء أول طريق تشق أحشاءها لتوصلها «بصنعاء» التي لم يرها مطلقاً.. هؤلاء الأطفال في نظره كانوا أكثر من مغامرين بل اعتبرهم مجانين.

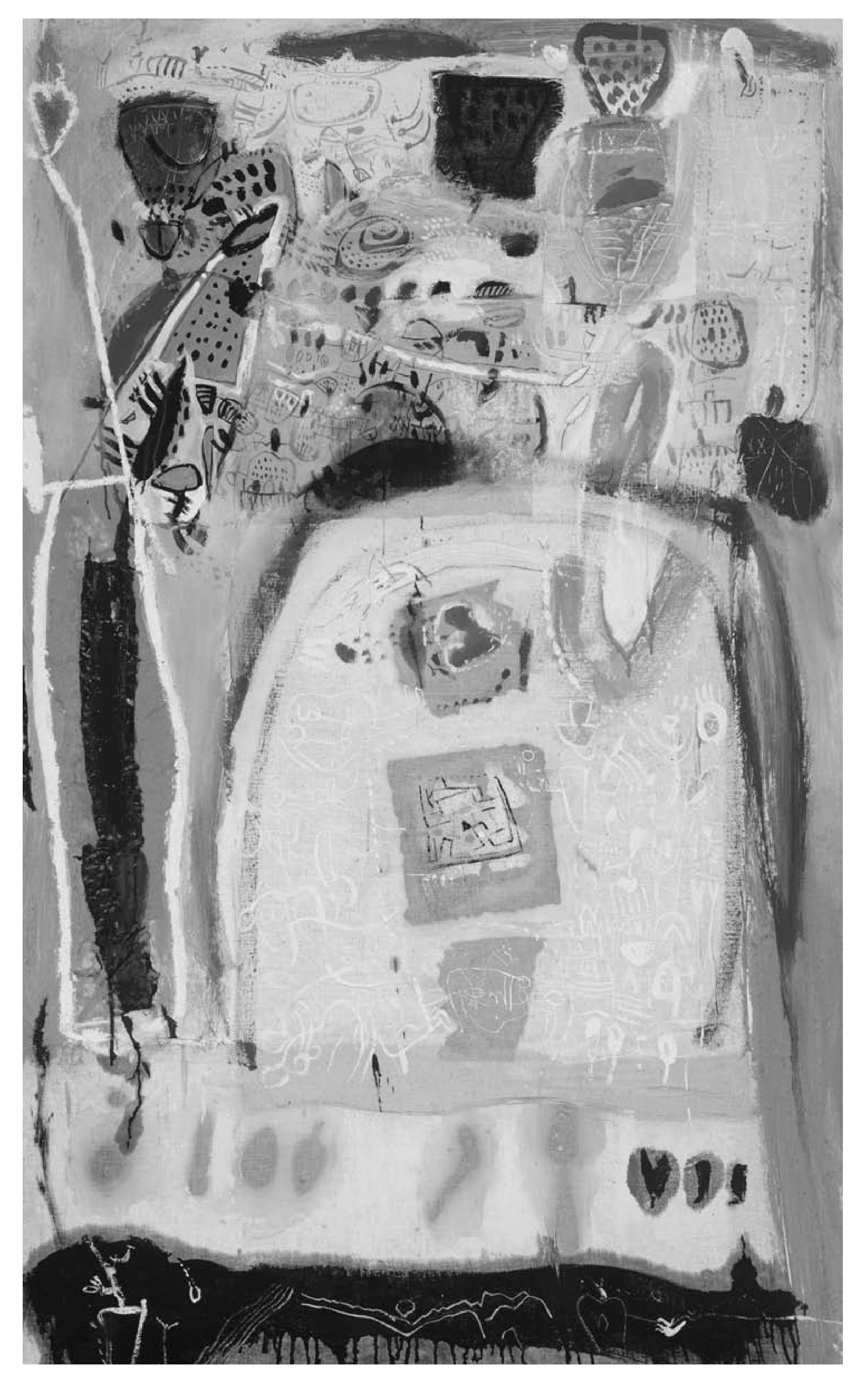
رفع رأسه نحو الشمس التي ترسل بقوة لهيباً محرقاً تعودتها عضلات جسمه الطويل الأسود. ولمح الجبل الذي يقف أمامهم مباشرة والذي يقف عائقاً للطريق في زحفها نحو العاصمة.. نحو صنعاء...

كان الجبل وعراً بدون مسالك وبدون حياة.. مجرد صخور صلدة.. ورأى علي التهامى الحبال تربط في وسط الرجال القصار الذين بدأوا دون إبطاء في التسلق، وشعر بدقات قلبه تنتفض بقوة. إن كل شيء إذن حقيقة، لقد كذب الخبر منذ أيام حين سمع أن الصينيين سينسفون كل الجبال التي تعوق الطريق لتسير في خط مستقيم.. كيف يستطيع هؤلاء المجانين نسف جبال؟

كان الرجال يصعدون بسرعة، وارتفعت معهم كل الرؤوس وانتصبت الأجسام والدهشة تعلو وجوههم وهم يرون لأول مرة في حياتهم رجالاً معلقين بالحبال يتسلقون كالقردة الصخور.. بل ويعملون أيضاً في منتصف الجبل. لقد كانت بأيديهم معاول من نوع غريب تثقب قلب الجبل بقوة وسرعة. وكانت أيدي الرجال القصار تهتز لكنهم لا يسقطون. يا لهؤلاء الأطفال الغريبي الأطوار!..

وهز علي رأسه وهو يتذكر أيامه عندما كان أحد عبيد «هادي هيج». لقد رأى أناساً غرباء آخرين كانوا حمر الوجوه يتصببون عرقاً ويشربون دون توقف.. رأهم وهم ينظرون إليه وإلى كل زملائه الذين يفلحون أرض سيدهم الكبير باشمئزاز وتأفف، ويتهربون منهم قدر استطاعتهم، وينامون بعيداً عن قراهم في خيام بيضاء كبيرة وأحياناً في سياراتهم وقد وضعوا حراساً مسلحين حولها، وكان كل عملهم كما يذكر ـ علي التهامى ـ أن يحلموا «أعواداً» طويلة عليها شيء يلمع ويغمضوا إحدى عيونهم وهم ينظرون إلى الصحراء والرمال والجبال الصماء والأرض الخضراء التي رووها بعرق جباههم، دون أن يعلموا شيئاً سوى تشويه أوراق بيضاء كبيرة بمجموعة من الخطوات التي لم يعرف علي التهامى منها شيئاً. وبعد أن قضوا مدة طويلة ذهبوا دون عودة ودون أن يخلفوا من الأعمال سوى كرهه لهم وكره كل الناس.

واقترب من الجبل وهو يرى الصينيين يمزقون قلبه دون توقف. إن هناك فرقاً كبيراً، هذا ما عرفه «علي التهامى» جيداً. إن هؤلاء أكثر جدية في عملهم من أولئك ذوي الوجوه الحمر، كلهم بالنسبة له غرباء، ولكن هؤلاء الذين يعمل معهم اليوم ليسوا سوى «حمير شغل» كما يطلق عليهم كل العمال، ثم إنهم لا يتكبرون ولا يهربون من العمال بل ينامون معهم ويحفرون سوياً بل ويضحكون وهم يلقون بالتحية كل ساعة، بعد أن يكسروا اللغة العربية، ويبتسمون دون توقف. لا حراس لديهم وهم لا يتجنبون الفلاحين، بل إنه رآهم يساعدونهم في الحرث وهم يتغامزون من الفرح. وكم رأى هذا المنظر على طول الطريق.. وتذكر تلك الحادثة التي وقعت منذ أيام،



حين سقط حجر كبير فوق رجل أحد العمال فإذا بأحد الصينيين يسرع بتمزيق ثوبه وربط الجراح حتى وصل آخر ومعه صندوق للأدوية. كم كانوا طيبين معه ورقيقين!

كان العمال يتهامسون وهم يرون الرجال المعلقين بالحبال ينتقلون من كل الاتجاهات فوق تلك الصخور ويعملون دون كلل. كان البعض مشفقاً والآخر ينتظر اللحظة التي يسقطون فيها.. ولكن الصينيين كانوا يعملون بسرعة وصمت. وتخيل علي التهامي الابتسامات التي لا تنمحي من على وجوههم. تخيلها وابتسم بدوره.

انتهت ساعات العمل.. وعاد العمال إلى مراكزهم.. كانوا خليطاً عجيباً. فهم يعملون لأول مرة كعمال شق ورصف طريق – الحديدة – صنعاء. كانوا فلاحين وبحارة ورعاة.

كانت الغرفة التي يعمل فيها علي التهامي إحدى الغرف الكثيرة التي أقيمت؛ فقد أخذ كل فريق يعمل في منطقة، وكان التنافس في العمل على أشده: من الذي سينجز قبل الآخر؟. وكانت فرقة علي التهامي في مقدمة الفرق. وسمع علي ضجة ثم رأى العمال يسرعون بالاختفاء، وكانت أصوات تصيح: «بارود.. بارود..»

وقريباً منه وقف اثنان من الصينيين ينظرون بعيداً نحو الجبل، ورأى علي الجبل وقد ثقب في كل جزء.. واقترب من الصينيين؟ ومن بعيد دوى الانفجار واهتزت الأرض تحت قدميه، وانتشر الدخان والغبار ورأى الجبل ينتفض وهو يلفظ من داخله كل ما يحويه.. مرت دقائق – وعلي التهامي لا يصدق. كانت أذنه قد سُدّت والغبار يحيط به.. والدخان يندفع إلى منخريه المفتوحين، وتدمع عيناه، ومن خلال الدموع رأى ابتسامة كبيرة، ترتسم فوق وجه ملائكي صغير ذي عيون صغيرة.. وأنف جميل.

وحين فتح عينيه تماماً.. لم يعد للجبل وجود: لقد أصبح ميداناً واسعاً مليئاً بالصخور والتراب والدخان؛ وسمع صوتاً صغيراً من جانبه:

ـ كيف.. تمام.. هه؟

ورأى الوجه الذي يبتسم وهو يشير إلى الجبل الذي مات منذ لحظات:

ـ طريق تمام.

وهز علي التهامي رأسه. كل الذي تمناه في تلك اللحظة أنه لو كان زملاؤه في أرض – هادي الهيج – هنا يرون ما رآه.

كان يقف بجانب الصيني ينظران إلى الطريق الذي أمامهما. ومن بعيد كانت تلوح قمم جبال أخرى أكبر. وقال مخاطباً الصيني:

ـ أنت. كم عمرك؟

وتزداد الابتسامة اتساعاً وهو يرفع أصابع يديه العشر ثلاث مرات. ولم يصدق علي. كان كل شيء يدل على أن الصيني لا يتعدى العشرين. شعره، عيناه، وجهه، بل ذقنه التي لم تنبت فيها شعرة. وهز رأسه غير مصدق.

وهنا سأله الصيني بدوره: ـ أنت كم؟

فرفع علي أصابع يديه أربع مرات، وبكل بساطة مضى الصيني وقد أمسك بعلي من يده نحو منطقة الانفجار وهو يحدثه، بينما علي يلتقط بعض ما يمكن فهمه، وتوقف علي مشيراً إلى الجبال البعيدة؛ وعرف الصيني ما يريده وبحركة سريعة كانت يدا الصيني ترتفعان في الهواء صائحاً:

ـ كلُّو... يوم.

وأصبحا صديقين. وكم من مرة أخطأ علي في التعرف على صديقه لأن الجمع متشابهون وكلهم يبتسمون.

وتمضي الفرق بسرعة ونشاط دون توقف والخبراء الصينيون بجانبهم يحملون المعاول، يحفرون ويبتسمون، كان حبهم يشمل كل شيء. وعرف علي التهامي الذي كان يوماً عبداً – لهادي الهيج – عرف أنه لا يستطيع إلا أن يحبهم ويحترمهم، وكان يفكر: إذا كان هؤلاء يعملون بهذا النشاط هنا في بلادنا فبأي نشاط يعملون في بلادهم؟

واقترب جبل.. وكان لا بد وأن ينزاح، ويختفي لتمضي الطريق إلى الأمام – إلى صنعاء.

وابتسم – ليو – صديق علي وهو يرتفع مع الجبل ويصيح بعلي الذي وقف يقدم له الآلات:

ـ أنا ... أنت... أقوى من الجبل.

وشعر علي بهزة عنيفة: لأول مرة عرف أن الانسان – بل هو نفسه أقوى من الجبل. ويقترب جبل ثالث ورابع وعلي التهامي في المقدمة بجانب صديقه – ليو – ويرتفع الحبل ليقل لأول مرة عاملاً يمنياً يفجر الجبل لتمضي الطريق – طريق الصين كما سماها الشعب تمضي، وعلي في المقدمة يزيل الجبال ويمهد الطريق وترتفع حبال أخرى تحمل عمالاً يمنيين آخرين ويبتسم – ليو – وهو يقول:

ـ يمني.. كلُّو ذكي.

١٩٥٩

كانت قطرات قليلة تتساقط أمام الدكان وأنا واقف أرتجف من البرد. ولكن تلك القطرات لا تهمني، إن الذي هو لماذا تأخر.. ؟ ولحت على الجدران بقرب الدكان آخر رسم له رسمه بالأمس، إن الرسم يبتسم.. كم هو لطيف «أبو ربية» هذا..

اتخذت درج الدكان مقعداً ورحت في تجميع ذكرياتي عن «أبو ربية».

كان ذلك من أعوام ثلاثة عندما أقبل وأنا جالس في الميدان الصغير أمام دكاننا. كان يسير بهدوء وهو ينظر إلى الأرض ويدفع الحجارة بقدميه، وفي عينيه تفكير عميق.. شيء ما كان يقلقه.. وعندما رآني إبتسم وقال: «هل تسمح لي بالجلوس؟» ونظرت إليه ضاحكاً: «ولم لا، الميدان حق الله».

هز رأسه مستغرباً وهو ينظر إلى الميدان وإلي.

ـ هل بقي شيء في هذا العالم لله؟ إنني مستغرب يا إبني. الناس أكلوا حقوق الله.. هذا الميدان حق الحكومة وأنت هنا تمثل الحكومة.

رحت أقهقه: أنا التلميذ في الابتدائية أمثل الحكومة؟ فكرة لطيفة.

ـ إجلس يا «أبو ربية».

ـ أنت من فين تعرف إسمي؟

ـ ومن لا يعرف إسمك في أديس أبابا؟

جلس بجانبي وراحت عصاه الصغيرة تخط على الأرض خطوطاً بدت غريبة في أول الأمر، لكنها سرعان ما أصبحت تكوِّن صورة مضحكة. تنفس بعمق وهو ينظر إلى ما خطته عصاه.

ـ اسمع: إيش اسمك؟

ـ سعيد.

ـ تدرس في مدرسة الجالية؟

ـ أيوه في الصف الخامس. قلتها بفخر.

كان «أبو ربية» في الخامسة والثلاثين من عمره، أسمر الوجه غائر العينين، ذا ابتسامة غامضة تسخر من كل الناس.

ـ اسمع يا سعيد.. تعرف مين رسمت؟

ـ هذا حمار..

ضربني على ظهري بعصاه بلطف قائلاً:

ـ شوف تمام.

لم يكن أمامي إلا صورة حمار، إلا أن الرأس كان غريباً لم يكن يشبه رأس حمار، ولكن وجه شخص ما معروف.

ـ هذا «باجحش».

ورحت أضحك.. إن الصورة تشبهه تماماً.



ـ ولكن ليش هو حمار؟
ـ إسمه باجحش... وهو كمان حمار.. ما رضي أمس يعطينا «ربية»...
وصمت قليلاً ثم قال:
ـ ايش تشتهي تكون لما تكبر؟
أجبت بسرعة: ـ تاجر.
ـ حمار! ما تعرف أن التجار ناس بطالين؟ تشتهي تكون بطال؟
ـ لا أشتهي أكون تاجر منشان أساعد الفقراء.
ـ ايه يا ابني كلهم لما كانوا صغار مثلك كانوا يقولون انهم بيساعدوا الفقراء، واليوم معاهم فلوس كثيرة، نسوا الناس.. نسوا الفقراء.
واستمر:
ـ اسمع.. شوف باأرسم لك حاجة. تشتهي؟
ـ أيوه.
راحت عصاه ترسم بسرعة على الأرض، وبعد قليل كان شيء ما يشبه الجبال والشمس والناس والحمير، وأشياء كثيرة لم أستطع أن أتبينها..
ـ ايش هذا يا «أبو ربية»؟
ـ بلادك.
وراح يرسم ويرسم، والعرق يتصبب من وجهه، ورأيت دمعة تنحدر على وجنتيه، وعيناه الغائرتان تحملقان في الصورة التي رسمها.. والتفت فجأة وأشار إلى البعيد:
ـ تعرف أن بلادك هناك.. جميلة.. كلها جبال وأشجار وشمس ووديان.. إيه ايش عرفك، عادك جاهل، ما كنت في اليمن؟
ـ لا.
ـ ايش عرفك.. إسمع لازم تروح اليمن، ايش تسوي هنا ايش معك هنا في بلاد الناس؟
لم أجبه. إنني أعرف أن بلاد والدي بعيدة. لقد سمعت والدي يتحدث كثيراً عن جدي الذي لم أره قط وعن إخوة لي لم أر حتى صورهم، وكذلك كنت أسمع من أصدقاء والدي عن أشياء كثيرة عن الذهب.. والجرائد وأشياء لم أكن أفهمها. وهمست إلى «أبو ربية» قائلاً:
ـ إسمع يا «أبو ربية» الجرائد ايش تقول؟
خبط على الأرض بهدوء قائلاً:
ـ ايش من جرائد، كلهم كذابين يا ابني لا تصدقهم، طمّاعين. يجروا ورى البيس، معك بيس باياكلوك ما معك ولا حد بايسلم عليك. إسمع يا سعيد كل اليمنيين ليش يهاجروا هم خوافين، ما قدروا يجلسوا في بلادهم وهربوا منها، خلوها للملاعين، آه انت ما تعرف بدأوا بالهجرة من ألف سنة. يمكن أكثر... قالوا «سد مأرب» تهدم.. ومن هدمه.. فأر[٢] صغير.. شوف كذابين، هم هدموا السد بفسادهم ما قدروا يبنوا سدود ثانية هربوا.. الله يقول: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور».
أيوه يا سعيد بلدة طيبة كانت معانا.. وبلقيس، ما سمعت عن بلقيس؟ عادك جاهل، لما تكبر باتفهم كل شيء، وبلقيس هذي كانت أول «حرمة[٣]»، في الدنيا ينتخبها الشعب رئيسة، شوف إلى فين توصلت حضارتنا، وإيش معانا ذي الحين؟ كلنا هربنا خلينا الحريم في البلاد، ما معانا اليوم إلا جنتين «ذواتي أكل خمط وإثل وشيء من سدر قليل».
تنهد بعمق مستمراً في حديثه: أيوه رجعنا نلحس النعمة في بلاد الناس، وبلاد الناس، وبلادنا كلها ذهب، الله قد قال في القرآن ما في أحسن من بلادنا، آه.. جنة بس تشتهي ناس تشتهي رجال.

وأصبحنا صديقين.. وكم ذهبنا معاً إلى منازل الأغنياء ليرسم صورهم على الجدران، هذا في صورة كبش ينطح صخرة. ونجلس بعيداً بينما يقترب الناس من الصور ضاحكين:
ـ تعرف يا سعيد: لو سافرت اليمن باكون غني.
ـ وباتنسى الناس الفقراء؟
ويقهقه مجيباً.
ـ لما ما باأنسى. في اليمن الواحد في بلاده، أما هنا نحن في بلاد الناس، تعرف الواحد غريب، عيب يتفرجوا علينا ويقولو: شوف هذا اليمني يمشي حافي ولاّ ثيابه مقطعة لكن إيش نسوي، إذا كان الله أعطى الأغنياء قلوب من حجر. ونفترق مع المساء.
بالرغم من الصداقة التي كانت تربطني «بأبو ربية» إلا أنني لم أكن أعرف أين يعيش وكيف وكلما سألته كان يجيب:
ـ يا شيخ أرض الله واسعة.
ـ لكنك قلت الناس أخذوا أرض الله.
ـ طيب لا تزعل أرض الحكومة واسعة.
لقد كان «أبو ربية» يتفنن في رسم أولئك الذين يكرههم وكان يقول لي: «تعرف اليوم باجحش أعطاني خمس ربيات» ثم يضيف بفخر: «لكني رفضت علشان ما يقولوا أبو ربية طماع أخذت منه بس ربية واحدة».
كانت قطرات المطر مستمرة في التساقط. والرسوم على الحائط تبكي مع المطر والشارع خال سوى من عربات «الجاري» المندفعة تحت المطر.
إلى أين ذهب؟ لا بد أن شيئاً ما قد حدث له، لم يغب طوال ثلاث سنوات كهذه المرة. لقد غاب مرة واحدة فقط وكان ذلك بسبب مرض ألم به، لقد كان منظره مؤلماً وقد نحل وأصبح كعصاه التي لا تفارقه... ضعفاً واصفراراً. وقد أتى يعتذر عن تأخره... وما زال صوته يرن في أذني وهو يقول:
ـ ايش نسوي، الله بلانا بالمرض.. قد نحنا فقراء ما معانا بيس عاده يزيد الفقراء مرض..
ـ لكن يا «أبو ربية» ليش ما تشتغل؟
ـ عادك جاهل ما تعرف.. يا ابني مش أنا اشتغل كل يوم؟ وأنت: كنت أفتكر انك عاقل تفهم ايش يعني الرسم... إسمع الرسم أحسن شغل في الدنيا.
ـ أيوه لكن هذا الشغل ما ياكل أحد.
ـ ومن يشتهي يأكل؟ المهم الناس يكونوا مبسوطين لما يشوفوا الرسم حقي... الناس يشتهوا يقولوا لهذا التاجر ولا ذاك إنه حمار أو كلب، ما يقدروا أما أنا أرسم ما أريده ولا حد يقدر يقول علي حاجة.
ـ ليش؟
ـ تعرف لما تقول لواحد كلب يزعل... لكن لما ترسمه زي الكلب أو الحمار، تخلي الناس يضحكوا عليه وما يزعل: هذي طبيعة الناس.. عادك صغير لما تكبر باتعرف كل حاجة.
لكن «أبو ربية» لم يعد. لقد مضى أسبوع. ومعظم رسومه قد إنمحت من على الجدران، ما عدا صورة صغيرة رسمها لي وكم هي مضحكة..
لقد سألني مرة أيضاً:
ـ ايش تشتهي تكون لما تكبر؟
أجبت بسرعة: ـ رسام.
كانت الصورة لي وفي يدي ريشة وتحت الصورة كتب «أبو ربية»: «برفية الصورة يا أهل الخير» وفجأة ترامى إلى أذني صوت والدي:

ـ مالك كل يوم عندك، بايقتلك البرد تشتهي تموت، هيّا أدخل داخل وإلا باجي أربيك.
ولكني كنت أنظر إلى الشارع وفي عيني حزن عميق. ودخلت وجعلت أنظر إلى والدي الذي كان منهمكاً في كتابة الحسابات وسألته بهدوء:
ـ أبا.. أبا.. فين «أبو ربية»؟
ـ زفروا به.
ـ لا فين؟
ـ إلى اليمن.
ـ ليش؟
ـ مجنون.

* * *

وبعد خمس سنوات غادرت أديس أبابا إلى عدن. وفي ضجيج مقهى من مقاهي الشيخ عثمان وأنا جالس أحتسي قدحاً من الشاي لمحته مقبلاً.
وصرخت بسرعة:
ـ أبو ربية.. أبو ربية.
والتفت إلي... وقبل أن أتمكن من القيام لمعانقته كان قد ترك المقهى وولى خارجاً.. جريت وراءه، إلا أنه غاب في الزحام. كان في ملابس ممزقة وقدمين حافيتين وفي وجهه آثار بؤس.
قال لي صاحب المقهى:
ـ من فين تعرفه.. اسمه المجنون.. جالس كل يوم يَشخطط[٤] على الجدران صور للناس مثل الكلاب..
أجبته: إنه ليس مجنوناً.
ـ إذا كان مش مجنون ليش ما يدور له على شغل ويشقى على بطنه...
وصمت..

١٩٦١

(٢) إشارة إلى الأسطورة التي تقول إن فاراً كان ينحت في السد حتى تهدم.
(٣) امرأة.
(٤) يرسم باللهجة اليمنية.

عندما تعطلت السيارة في نهاية «وادي الصميتة» كان علينا أن نقطع الطريق إلى «سوق السبت» مشياً على الأقدام.
كنت أحب السير خاصةً عندما تترقرق تحت أقدامنا مياه الوادي الباردة. وتهب علينا نسمات عذبة وأمامنا تنتصب جبال «الحُجرية» الصخرية وهي تحتضن القرى والأرض الخضراء التي تنمو عليها سنابل الذرة.
كم هو جميل «وادي الصميتة» مساء عندما يخيم عليه الصمت وترنو الشمس من بعيد وهي تلملم أشعتها الدموية وصوت الماء ينشد أغنية يمنية حزينة.
أما الآن فكم تملكني الغضب إذ أن الجو حار والشمس قوية والماء لا لذة فيه ووجوه المسافرين قلقة متعبة صفراء.. فغداً هو «العيد»، وعلينا أن نصل الليلة إلى قرانا. الكل يحلمون منذ البارحة عندما غادرنا «عدن» بسهرة جميلة بجانب زوجاتهم وأطفالهم.
ولكن ها هي السيارة الملعونة تعطلت.
لم نجد بداً من السير بعد أن ظللنا أكثر من أربع ساعات بجانب السيارة التي أبت أن تظل في مكانها، وشعرنا بالجوع ينهش بطوننا بقوة فتشجعنا على المشي خاصة عندما ذكرنا أحدهم بأن اليوم هو السبت، فالسوق مليئة بأشياء وأشياء.
قذفت «المشدة» على رأسي لأحميه من الشمس، ورفعت مئزري إلى الركبتين وضربت الماء بقوة ناظراً إلى الجبال والأشجار.. مصغياً لخوار البقر التي ترعى قريباً في الوادي ونباح الكلاب الهزيلة.. ناظراً إلى عيون الفلاحين التي تتابع قافلتنا بتكاسل وضجر.
لم تكن السوق بعيدة..
ولمحنا بعد أن خرجنا من الوادي وسرنا قليلاً على سهل أخضر عدة أكواخ من الخشب والزنك والقش جلس تحتها الباعة.. ومن بعيد كانت تسمع أصواتهم وأصوات المشترين، وترتفع الصقور عالياً وهي تحوم على المجزرة الواقعة في الطرف الآخر من السوق. ونهيق الحمير وهي تتغازل والرائحة العفنة وصراخ الأطفال وهم يتقاذفون بقايا الفواكه القذرة.
ولم أكد أصل إلى السوق حتى ارتميت على أقرب متكأ في مقهى. ورحت أعب القهوة الحارة بشراهة وأرنو بنظري إلى السوق.
كانت السوق كبيرة وقريباً منها ترتفع أكمة عليها علم إنجليزي ومبنى أبيض وخيام وحارس بملابسه العسكرية وبندقيته... فسوق السبت هي نقطة تفصل بين شمال اليمن وجنوبه، وتحت هذه الأكمة يمتد إلى ما لا نهاية سهل أخضر يمزقه وادي الصميتة المنحدر من جبال الحجرية. وحين تهطل عليها الأمطار.. يحمل معه وهو يتدفق من الشمال الطمي والأشجار والسيارات التي اتخذت قلب الوادي طريقاً لها.. والناس وكل ما يجده السيل أمامه.. لم يكن الوادي الصامت يلتفت ليلقي التحية على أحد. كان صامتاً كالموت وهو يحضن ضحاياه. آه وكم قد سالت بصمت دماء على جوانب هذا الوادي..
لا تزال الأكمة تذكر حتى أيام قليلة ماضية رصاصات الانجليز وهي تحصد ثوار قبيلة «الصبيحة».. ورصاصات الثأر التي تنطلق بصمت مع مساء كل يوم.. آه يا وادي الصميتة حتى متى يطول الصمت؟
تفرق الصحاب وذهب كل منهم إلى السوق وجلست أنا تحت سقيفة المقهى. أنظر إلى ما يدور حولي.. كانت أمامي تماماً طاحونة ضجيجها يصم الآذان، بجانبها مربط للحمير التي حملت الحبوب إلى الطاحون وغير بعيد المجزرة مع الأوساخ المتبقية من الذبائح وطنين الذباب والصقور تهبط من ارتفاعها لتنقض على البقايا المتناثرة حول المجزرة وأصوات بائعات الفواكه والخضروات الرقيقة يخنقها السعال وهن في ملابس سوداء كسواد حياتهن. كانت ترتفع في جو السوق مع أصوات المشترين ونداءات الباعة رائحة الدم وأصوات الصقور، والذباب الذي يداعب عيون الناس وأفواههم.
كنت أفكر في القرية، في زوجتي التي لم أرها منذ عامين، وطفلي الذي ولد وأنا في المهجر، في كل الأشياء الصغيرة التي كنت أحلم بها تحت تلك «السقيفة» وشمس الظهيرة تكوي رؤوس الناس. كم كنت أتمنى لو كنت في تلك اللحظة في البيت بجانب زوجتي.
غداً العيد، والسوق بضجيجها تثير الغثيان، والصراخ وصوت الماشية ونهيق الحمير وهي تتغازل أمام باب الطاحونة غير أن الحبال التي تربطها إلى الجدران تمنعها من تنفيذ ما تريد. كان صراعاً حاداً بين الحمير والحبال، والشمس ترسل أشعتها بقوة والذباب يراود العيون باصرار، وامرأة تختلس النظر إلى ما يدور. كانت سمراء صغيرة نحيلة الجسم في ملابس سوداء على وجهها حرمان سنوات الشباب وهي تتابع ما يدور وخيبة الأمل ترتسم بقوة كلما هزم الحمير، وأنا أنظر إليها والطاحون لا زالت تصم



الآذان بضجيجها اللعين. ترى بم تفكر هذه المرأة؟ وأنا ماذا أعمل أيضاً؟ إننا نفكر في شيء واحد: في المعركة التي لم تنته بعد، والحمير تتصارع لكنها لم تتحرك من مكانها. كان قدرها مربوطاً بالحبال، إنها تعلم ما تريد لكنها لا تستطيع، الحبال تمنعها، تقيدها وعيونها تغيب في دوامة من التفكير.. وشمس الظهيرة تحرق الأرض وسيارات تخترق السوق في طريقها إلى المعسكر وعليها جنود حمر الوجوه يتصبب منها العرب بغزارة، المرأة تنتظر وأعصابي تتوتر.. كنت أفكر في حياتي وحياة السوق والمرأة والحمير، والمعركة التي أنهتها المرأة فجأة بفك الأربطة. وجلست بعيداً تنظر وفي عيوننا شيء ما مشترك.

وهؤلاء الذين في السوق ترى، بمَ يفكرون؟..

ونفخ بوق العسكر والمرأة لا تزال تجلس في ظلال الطاحونة مبهورة الأنفاس.

وأنا أحلم بدفء غرفتي الليلة.. ومن السوق ارتفع صوت مزمار مع دف وأغنية «تهامية» ورقصة من شابة سمراء بلون الطمي في الوادي أيام السيول، تلمع عيونها السود وهي تغمز، وحركات جسمها اللولبي مثيرة وفمها نصف المفتوح ولسانها وهي تمر به على شفتيها المتلئتين تجعلني أغيب في دوامة من البؤس..

والحمير والمرأة المبهورة الأنفاس، وشعور مخيف يتملكني. إمرأة شابة في الثلاثين يلمع في عينيها الظمأ وشابة في العشرين ترقص وفي عينيها السوداوين نداء، وشفتاها خطيئة، وجسمها جحيم من اللذة... علي أن أهرب من هنا، أن أهرب. تركت «السقيفة» ورحت أدور في السوق كرجل مجنون وأصطدم في طريقي بأطفال زرق الوجوه، نحيلي الأجسام، حفاة، ونساء يتساقط الزيت تحت أشعة الشمس القوية من شعرهن على الوجوه. فيزددن بشاعة، ورجل كريه يمسكني من يدي راجياً أن أشتري منه شيئاً ما وطفل يجري خلفي ماداً يديه وفي عيناه بكاء، وشفتاه رجاء مؤلم، وخادمة تحمل فوق صدرها طفلاً نصف نائم ونصف ميت ووجهه يصرخ بالألم والمرض.

حتى الماشية التي تباع كنت أراها وقد أنهكها المرض.. كنت بحركات آلية أمضغ أوراق «القات» وأنفخ الدخان وأنا أبحث عن وسيلة للذهاب إلى القرية قبل أن يحل المساء. وعندما عدت إلى «السقيفة» كانت المرأة قد مضت بعيداً وهي تحمل فوق رأسها كيس طحين وشمس الظهيرة تشوي قدميها العاريتين.

ووادي الصميتة يخترق السهل الأخضر غير بعيد عن جبال الحجرية الصخرية التي تحتضن منازل وأرضاً وأناساً يحلمون بأشياء وأشياء...

١٩٦١





لم تبقَ أمامي سوى وريقات قليلة من «القات» وبعد قليل سأنتهي. وهذه الملعونة قد أقفلت عليّ الباب وذهبت بعد أن تركتني بجانب إبنها المصفر الملفوف في خرقة بالية قذرة. إنه ينظر إلي باستغراب وربما بخوف. كم مرة صرخت في وجهه.. في آخر الزمن أصبح مربياً لطفل لا أعرفه؟ إنها غريبة هذه المرأة. كيف تترك ابنها وحيداً مع رجل غريب تراه لأول مرة؟ قد يحدث؟ ليس مستغرباً هذا في عالمنا.

رحت أحملق في جدران الغرفة السوداء وقد بدأ الظلام يهبط على «تعز» كم أنت جميلة يا تعز. كل يوم في مثل هذا الوقت أكون قد تركت «المقيل» وذهبت إلى خارج المدينة حيث تنبسط المقابر إلى ما لا نهاية خارج أبوابها ويمتد طريق المطار كثعبان أسطوري.. لكني اليوم سجين غرفة رطبة.. سوداء الجدران، يتساقط فوق رأسي التراب كلما مرت حشرة بين أخشاب السقف وربما ثعبان... كم أكره الثعابين.

لماذا تصرخ يا طفلي المسكين؟ لقد انتهى اللبن الذي تركته لك أمك منذ ساعات. ألا تتركني لأحزاني؟... أنفذت دخان سجارتي في صمت ومضغت البقية من أوراق «القات». إسمع يا طفلي: نحن في غرفة واحدة لا يعرف أحدنا الآخر؛ لست أدري حتى ما اسمك؟ وكم عمرك.. لعلك في الشهر السابع أليس كذلك؟

ما أجمل ابتسامتك وما اشد اصفرار وجهك الصغير.. أأنت مريض؟ كان والدي يريدني أن أصبح طبيباً يوماً ما. يقولون أن الطبيب يغتني بسرعة في بلادنا.. طبعاً مرضى كثيرون وأطباء بعدد أصابع اليد... ألا ترى يا صغيري أي صدفة عمياء جمعتنا.. كم هي جميلة عيونك السوداء.. إمرح اقتل الأمراض بابتسامتك.. وسأقص عليك يا صغيري لماذا أنا هنا؟ أعذرني سأمتص سيجارتي حتى النهاية وأوراق القات تكاد تنتهي وأنا أنظر إلى الشباك الصغير المعلق بقرب السقف حيث يسبح في السماء السوداء قمر تعز الحزين بالقرب من قمة «صبر». إنه مصباح كبير يا صغيري ستراه عندما تكبر معلقاً على صبر وربما لن تكبر. ربما لن ترى صبر.. لا أن كل أطفالنا في ضخامة صبر. أليس كذلك يا صغيري المصفر الوجه؟ إنني لا أستطيع أن أقول لك لماذا أنا هنا؟ لماذا أضايقك في أحزانك وآلامك.. إنك صغير وعندما تكبر ستلعنني في أعماقك. ستقول أي رجل تافه مر ذات يوم بحياتي.

إسمع: لقد أتيت هنا لأرتكب جريمة صغيرة.. أتعرف «سعدية» الفتاة السمراء التي تشبه البنّ؟ إنها تسكن بالقرب منكم في المنزل المجاور. نعم إنها تأتي دائماً إلى والدتك. لقد كان معي معها موعد، أن نلتقي اليوم هنا بجانبك، فعندما دخلت قبل ساعات لم ألق عليك أي اهتمام. كنت مجرد خرق بالية وجسم أصفر نحيل، وعينين معذبتين.

إنها لم تأت: فقد مرت من أمام الباب بسرعة وهي تعتذر لي بعيونها.. لماذا؟ لأن هذا «العكفي» السخيف الذي يسكن بجواركم قد قرر اليوم أن يتكئ ويمضغ قاته بالقرب من باب بيته.. إنها لا تستطيع الدخول فسوف يراها ويثير ضجة نحن في غنى عنها.. يا صغيري.. إنها وهو في «مقيله» أمام باب المنزل ينظر إلى «سعدية» وعيونه اتهام.. كانت زوجته تنام مع رجل آخر.. لقد أخرجته من المنزل وفرشت له على الباب حيث أحضرت له «المداعه والقات» وذهبت..

ألا تسمع صوتها في الغرفة المجاورة وهي تفح كأفعى في أحضان رجل آخر. من أين أعرف؟ لا تتهمني بالكذب يا صغيري: إنني لا أستطيع تحمل نظراتك. لقد حضرنا سوياً يا صغيري وجلس هنا بجانبي قليلاً ثم خرج إلى الغرفة المجاورة حيث انتظرته زوجة العكفي التي تخترق عيونها الشابة جدار السماء بسحرها.

إنني دائماً تعس في هذه الأشياء.. والعكفي لا يزال يرمق باب غرفتنا.. لقد أقفلت والدتك الباب.. وذهبت لتوهمه أن لا أحد هنا. نعم لا أحد سوانا.. وصوت فحيح زوجته الشابة.

القمر الحزين يعانق قمة صبر، والنجوم تتلألأ كمصابيح زرق. وتعز تستقبل ليلها الحزين كعادتها. و«العقبة» وقد أضيئت بالكهرباء تشبه عقداً من اللؤلؤ على صدر حسناء. وسعدية قد ذهبت إلى السوق. وقد لا تعود إلا في المساء.. لعلها مع رجل آخر.. من يعرف؟

أرأيت كم أنا تافه؟ لماذا تسألني عيناك كل هذه الأسئلة؟. إنني لا أستطيع أن أجيب عليها دفعة واحدة؛ ثم إنني قد أنهيت أوراق القات. لو أتت والدتك فقط لتركتها تشتري لي أوراقاً أخرى.

الغرفة مظلمة. دفعتني إلى إشعال عود ثقاب مفتشاً عن – الدبه – كم هو كريه جو هذه الغرفة.. فالجدران سوداء والسقف قد نسجت عليه بيوت العناكب وفي الزاوية أحطاب وفرن صغير. «موفى» إن والدتك فيما أرى خبازة تبيع الخبز للناس في السوق.

نعم إنني أتذكرها تجلس أمام «باب موسى» عند السور القديم بجانب الجمرك. لقد رأيتها مرات.. ولكني لم أفكر فيها مطلقاً.. إنها امرأة شابة وجميلة.. يا لي من مغفل. ولكن أين والدك؟ ألا تعرف؟ وأنا أيضاً لا أعرف. شيء سخيف أن أظل مقيداً هنا حتى الصباح! لقد تركت الدكان مقفلاً.. إنني أعرف أن لا أحد سيأتي لشراء شيء فالحياة بمجموعها تافهة.. فما بالك بالبيع والشراء؟ آلاف العيون تراها تحملق فيها وهي تمر بالشارع دونما جدوى.. تحملق وتمضي تبحث عن اللاشيء.

أعذرني يا صغيري.. ألم تر مرة تعز؟ لقد رأيتها، حملت أمك إلى شوارعها.. ألست موافقاً معي أن تعز أجمل مدن عالمنا.. وجبل صبر وهو ملتفع «بجبته» السحابية وقت العصر وهو يحملق في تعز بحنان أب جبار؟ تعز رائعة.. نعم لقد ولدت فيها وأنت أيضاً؛ إنها مدينتنا.. عندما تكبر سأكون قد شخت لكن مدينتنا ستكون شابة.. هناك في أحضان «صبر» ستبنى أجمل منازل الدنيا و«قلعة القاهرة» مكان ممتاز لبناء فندق عالمي. دعنا نحلم بالمستقبل، بالأضواء تصنعها شموس كهربائية.. أليست أفضل من هذه «الدبة» الصفراء التي تشبه وجهك الصغير.

لم تأت والدتك بعد.. إنني أفكر فيها.. إنها حسناء. لا زلت أسمع فحيح المرأة الشابة.. وصوت المداع يشد أنفاس العكفي الذي علق على صورة لوحة نحاسية.. كتب عليها: «حرس شريف» يا إلهي! أي حرس وأي شريف!. وامرأته تخونه عبر الجدار وفمه المحشو بالقات وينفخ دخان «المداعة» قد أصبح خالياً من الأسنان.. إن منظره بشع تماماً مثل هذه الغرفة.. الماء قد انسكب من الجرة هناك بجانب الباب.. والفرن وقد غطاه الرماد والحطب حيث تزحف في داخل – زواحف مخيفة.. وملابس أمك المعلقة تماماً فوق رأسي. إنني أشم رائحة المرأة.. يا لي من أحمق! لماذا لا أغادر هذا الجحيم؟

صوت الباب يفتح.. لقد أقبلت: سأحدثها. سأقول لها أن تبقى معي.. إن وجهها الأبيض وهي تخطو من الباب يثيرني وفحيح المرأة الشابة – وصوت قبلات صديقي – إسمعي يا صديقتي: ألاّ قفلت الباب لنبقى هنا معاً.. لماذا؟ ألا تعرفين؟ لا أريد سعدية، دعيها تذهب إلى الجحيم، أنا محتاج لامرأة.. هل تفهمين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ لا أحد هناك فقد أظلمت الدنيا.. والقمر قد اختفى.. وصغيرك المسكين قد نام منذ ساعات.. لم يبق سوانا.. أنا والحيوان الذي يصرخ في داخلي. ستغتسلين! إذن أحضري لي قليلاً من القات وعودي بسرعة.

لعنة الله عليك.. إنها جميلة: لماذا لم أرها من قبل؟ يا لي من أحمق.. ألا تزال نائماً يا طفلي اليتيم؟ ذلك خير لك من أن ترى وحشاً بجانبك.

اللعنة على هذا الصمت وهذه العفونة.. «الدبة» ذابلة وهي ترسل ضوءها الشاحب كالحياة في شوارع تعز. إن صوت «المداعة» قد اختفى. لعله قد عاد إلى غرفته. هل عادت زوجتك الحسناء أيها «الحارس الشريف»؟ كم أنت يقظ.. إنها جميلة زوجتك: أهنئك عليها. إنها في جمال بلادنا، أما أنت أيها الحيوان، فحارس شريف.

الباب يفتح من جديد. دعيني أزيح ابنك من هذا المكان إنني لا أستطيع البقاء بجانبه.. خذيه.. نعم أعطيه لجارتك وأقفلي الباب.

لماذا تطفئين «الدبة»؟ كم أنت دافئة.. دافئة.

إنني أحمق.. أين كنت كل هذا الوقت؟

لماذا لم أرها من قبل؟ ولماذا أبحث عن سعدية؟

الليل يهبط فوق تعز.. والقمر الحزين قد غطت وجهه السحب، وصبر تلفع بالضباب. والحيوان داخلي يموت.. يموت.. يموت.



كانت قطرات المطر تتساقط على أبواب الدكان فتقبل أرض الشارع برفق. وأشباح سوداء ملتحفة بملابس بيضاء تمر بسرعة أمام باب الدكان ثم تختفي في عطفة الطريق.

كنت أنظر في الشارع إلى السيارات السريعة وخيول «الجاري[*]» المندفعة تحت لسعات سريعة من عصا السائق وهي تنفث دخاناً أبيض من فمها.

ـ هل أخبره الآن أم أن علي أن أنتظر حتى الصباح؟؟

ونظرت حولي... كان يجلس بجانبي فوق كرسي قديم وبين يديه مقص كبير يقص به علب الكرتون ليصنع منها أغلفة للكتب والدفاتر، وكانت في فمه كرة كبيرة من «القات» يمضغها بهدوء ويمتص ما تعتصر أسنانه...

وعدت أنظر إلى الشارع من جديد وأنا أفكر في أوامر مدير مدرسة «الجالية» التي يجب أن تنفذ وتهديده بالعقاب الشديد.

إن والدي الآن تعتصره حرارة أوراق «القات» التي بدأ في مضغها منذ الظهر، ولو أخبرته الآن لكان نصيبي الكثير من اللطمات والركلات.. ونظرت إليه وأنا أفكر في قوة لطماته ورأيت يديه اللتين كانتا لا تتوقفان عن قطع أوراق الكرتون والعروق البارزة وكأنها تريد الانفجار بينما حبات من العرق تلمع فوق جبينه والبرد يجعلني أرتجف كلما هبت نسمات باردة من الشارع. «لا داعي لإخباره الآن ولأنتظر حتى صباح الغد حين يصحو من نومه وتعود إلى شفتيه إبتسامته الكبيرة التي اختفت الآن خلف تكشيرة وجهه».

كنت في الحادية عشرة نحيفاً.. أدرس في الصف الخامس في مدرسة «الجالية»، وكلما هبت ريح باردة شعرت بارتجافة.. وها أنا الآن أرتجف من البرد والخوف معاً... الخوف من أن أخبر والدي بما طلبه مدير مدرسة «الجالية» فينالني عقابه والخوف من أن لا أخبره فينالني عقاب مدير المدرسة. وغالباً ما أفضل عقاب والدي الذي ألفته، وخاصة لطماته.

وكان والدي مستمراً في عمله تتساقط بين يديه أوراق الكرتون ومربعات ومستطيلات؛ إنه لا يخطئ أبداً في عمليته هذه.

كفت قطرات المطر عن التساقط وعادت الشمس إلى الظهور جاهدة أن ترسل أشعتها ولكنها كانت باهتة وهي تختفي وراء الأفق.

كانت الشمس بعيدة ترسل من هناك أشعة صفراء ضعيفة لا تستطيع مقاومة الليل الذي بدأ يهبط على المدينة.

ودخل الدكان في تلك اللحظة أحد تلك الأشباح السوداء الملتفعة بملابس بيضاء... كان طويلاً شاحب الوجه تجمدت خدوده من البرد وهو يمتص شفتيه ويسعل.

نظر إلي وإلى البضائع التي في الدكان قائلاً:

ـ أريد شراء كمية كبيرة من الدفاتر فأرجو أن تساعدني في تخفيض الثمن.

فعرضت عليه مجموعة كبيرة من الدفاتر. وكان والدي منهمكاً في عمله وهو يرفع عينيه محملقاً في الرجل الواقف أمامي.

جعل الرجل يختار ما يريد وأنا أحاول لفت أنظار والدي لأثبت له بأنني بائع ماهر وكنت أحاور الرجل مقدماً له أكبر كمية يريدها.

والرجل يبتسم ثم يسعل قائلاً:

ـ أولاد عرب...



سمع والدي سعال الرجل.. نظر إلى خديه الغائرتين ووجهه المصفر وقال لي بالعربية:
ـ سعيد، لا تقترب من الرجل.. إنه مسلول.
وشلّتني الكلمة... ورحت أنظر إليه في هلع... هل يحمل هذا الرجل الموت في داخله؟ والتفت إلى والدي كأنني أطلب منه النجدة، ولكنه كان مستمراً في عمله وعروق يديه تزداد انتفاخاً وهو يضغط على المقص وترتمي على الأرض قطع الكرتون – مربعة.. مستطيلة.
وعدت أنظر إلى الرجل وشعرت بالخوف وأنا أحاول ألا أقترب منه بقدر الإمكان... بينما كان الرجل هادئاً يبتسم وهو يحملق في وجهي الصغير ويختار ما يريد.
قلت الكلمات المندفعة من فمي محاولاً التخلص منه بأسرع ما يمكن. وعندما قدم لي النقود شعرت بالراحة وبسرعة أعدت له الباقي وجلست. إلا أن الرجل لم ينصرف. نظر إلى النقود التي أعدتها له وراح يعدها ويرمقني بطيبة قائلاً:
ـ لقد أخطأت يا بني..
وأعاد إلي جزءاً من النقود. قائلاً إنها زائدة عما له..
وسمع والدي كلمة الرجل فترك مكانه شاكراً الرجل وأعاد النقود إلى الخزينة.
رأيت الرجل يغادر الدكان وينطلق خلفه صوت سعاله وبصق على أرض الشارع بصقة حمراء غابت مع المياه التي تسيل على الأرض.
لم يعد والدي إلى مكانه بل وقف أمامي بقامته المتوسطة وجسمه القوي ويده التي ارتفعت في الهواء لتهوي على وجهي فارتميت على الأرض وصوت طنين اللطمة يصم أذني..
كانت شفتاه تتحركان.. لكني لم أسمع شيئاً، ولم أبك لأنها أصبحت عادة أن أتلقى لطماته، ولكن الذي آلمني هو أنني تذكرت مدير المدرسة «الجالية» وتهديداته ولأني لن أستطيع أن أخبر والدي الآن. وخفت الطنين وبدأت أسمع الكلمات التي تخرج من فمه..
ـ أولاد حرام باتبيع الدكان «ببيسة[٦]» ما تعرف تحسب زي الناس طيب قلي أوديك المدرسة كل يوم ليش؟ من شان تلعب وإلا من شان تطلع رجال!!
عادت الحرارة إلى يديه ومنها إلى أوراق الكرتون ولكن بعد أن تركت يده على وجهي آثاراً حمراء محتقنة.
ضاعت كرة القات من فمه؛ لقد امتصها وتابع كلامه قائلاً:
ـ يا ريت كان معانا آباء يعلموننا... احمد ربك أنك تروح مدرسة كل يوم وتحصل واحد يأكّلك ويشربك ويدفع لك فلوس حق المدرسة.. لما كنا في مثل سنك كان الواحد منا يشقى ويؤكل أهله... يا شيخ سبنا بلادنا وأجينا بلاد الناس نشقى ونتعب، كله من شان نطلعكم رجال.
كان الطنين يعاود أذني فتضيع كلمات والدي التي كنت أعرفها عن ظهر قلب ويزداد خوفي من مدير المدرسة. كان الجو بارداً والشمس قد غابت وراء الغسق ولم يعد يثبت وجودها سوى احمرار تلك الجبال البعيدة المحيطة «بأديس أبابا» كنت أرتجف من البرد ما عاد خدي الأيمن حيث كانت حرارة اللطمة. وكان الدكان خالياً سوى من صوت المقص وهو يصنع أوراقاً مربعة – مستطيلة.
وعادت الأفكار والخوف... وتخيلت مدير المدرسة بلهجته السودانية وعيونه المحمرة وجسمه القصير الممتلئ وهو يهدد الطلبة صباح كل يوم حين يحضرون بغير الملابس التي فرضها عليهم وقد ازداد تهديده أخيراً لإقتراب عيد جلوس «الإمبراطور» فهو يريد أن نكون بملابس موحدة. بل وهددنا بالسجن في قبو المدرسة الرطب والذي تنام فيه الثعابين والعقارب دون أكل وشرب. ونحن نعرف أن المدير لا يكذب بل إنه ينفذ وعيده وهو مسرور. ويخفت الطنين تماماً وتسمع أذني بوضوح صوت المقص وهو يئن تحت أصابع والدي القوية ويرسل من بين فكيه أوراقاً مربعة – مستطيلة.
وأرسل عيني تتصفح وجه والدي الذي غطته تماماً تكشيرة مخيفة: أين هي تلك الابتسامة العذبة الآن؟
* * *
وفي الصباح رأيت والدي يبتسم ونظر إلى خدي قائلاً:
ـ ماله خدك؟
لم أجبه. إلا أنني نظرت إليه نظرة عميقة عرف منها كل ما حدث بالأمس. وشعرت بأصابع يديه تمر بحنان فوق رأسي ثم وهو يربت بلطف على كتفي قال:
ـ لازم الواحد يتربى يا إبني... إيش نسوي... لازم.
كانت فرصة نادرة لأحدثه عن مطلبي، وصحت بطفولة:
ـ أبا.. أبا. كل الطلاب إشتروا ثياب حق المدرسة بس أنا باقي إيش تشتيهم يقولوا علي.
وبعد دقائق كنت أسير معه لشراء ما أريد.

١٩٥٨

(٥) عربة تجرها الخيول. أهم المواصلات في ـ أديس أبابا ـ
(٦) عملة تساوي المليم.

كنت عائداً من «حيفان»[٧] بعد أن قضيت فيها يومين في شريعة عند الحاكم. وكالعادة لم أخرج بنتيجة، فالشريعة ستستمر ولن تحل مطلقاً.

كان المساء يقترب وأنا أسير وحيداً تقتلني آلاف الهموم بعد أن مضغت اليوم ما يزيد عن ربطتين من «قات شراري» وتتفجر في نفسي ثورات لا تنتهي.. ومع أنني عادة لا أحب السير في المساء وحيداً ولمسافات طويلة إلا أنني اليوم قتلت خوفي وسرت أضرب الطريق بعصاي ومضغات القات لا تزال في فمي وحرارة الإندفاع والحقد وكل ما يولده القات تتصارع في داخلي، ونسمات الليل الرطبة مع خرير الماء.. في الجداول الصغيرة من على سفح الجبل.. ومنظر الوادي من بعيد يولد في نفسي ألحاناً صغيرة.. حزينة وثائرة.

ـ يا خبير.. يا خبير.

والتفت وأنا ألعن هذا الصوت، وشعرت بارتجافة خفيفة حين رأيت صاحب الصوت بمئزره القصير وبندقيته وعينيه المحمرتين مع مضغة القات في فمه وهو يخب بسرعة ليلحق بي بقدميه الحافيتين:

ـ لا فين يا خبير؟

ـ القبيطة.

أجبته بنفس مكسورة. وشعور داخلي بكراهية شديدة تملأني، فبقدر ما أكره الموت أكره منظر العسكري.

نحنا صحبه..

ومضيت في الطريق يتبعني العسكري.. وطارت كل الأفكار ولم تبق سوى خطوات العسكري وهي تصفع الأرض بقوة. وجعلت ألتفت بين الحين والحين أتحقق من شكله... وبدأ خوف حقيقي يسري في دمي.. إنني أكره العسكر.. وأخاف منهم ولم أسر مع أي منهم.. لكن الحكايات التي تتردد في كل مكان من قرانا عن أعمالهم الوحشية تدفعني إلى الإعتقاد الآن بالذات إلى أن هذا الرجل الذي يسير خلفي قد يقتلني. وما المانع لديه؟ قد يفكر أن لدي الكثير من النقود.. ثم ما الذي يمنعه؟. لا أحد هنا يرانا فالطريق خال.. ونحن معلقان في منتصف الجبل، وأقرب المنازل إلينا يقع هناك بعيداً في قعر الوادي أو على قمة الجبل، ولديه بندقية بينما لا أملك أنا سوى عصا صغيرة.. وراحت الفكرة تدور في رأسي حتى تخيلت أن الرجل ينزل بندقيته من على كتفيه بل إن صفعات قدميه على الأرض خيلت لي أنه يفتح زناد البندقية... و... ووقفت على جانبي الطريق كمن يحاول إخراج شوكة دخلت في قدمه وتركته يسبقني، ولكنه توقف على بعد خطوات وراح ينظر إلي.. كنت أريده أن يذهب.. لو لم ينتظر..

ـ ماه.. ما معك إبرة؟

ثم إستدرك وهو يحملق في السماء..

ـ هي ظلمة.. ما بتقدر تبصر.

ووافقت على كلامه بهزة من الرأس.

ومضى هذه المرة أمامي، وكنت أسمعه يتنهد بعمق ويلفظ أحياناً تأوهات شديدة الألم. وهو يحاول أن يطلق لحناً صنعانياً حزيناً.. لكنه سرعان ما يكبت اللحن لتعود الآهات من جديد.

كان طويلاً فيه رجولة القبيلي، كتفان عريضتان.. يخيل إلي أنه يستطيع حمل الجبل كله عليهما.. وقد حمل البندقية كأنها ريشة ناعمة.. وصوت صفعات قدميه القوية على الأرض تجعلها تئن ألماً.

ـ ليش ما بتتكلم..؟

ـ ما تشتهي أقول لك.

كانت لا تزال في نفسي بقايا خوف.

ورأيت إهتزاز رأسه وهو يحشو فمه بمزيد من أغصان القات.. ومن وراء السحب كان ضوء القمر يتسلل بخوف.. وسمعت صوته.. كان عميقاً بسيطاً فيه خشونة لهجة الشمال.

ـ ماه يا خبير كان معك شريعة؟ الله.. بلاكم أنتم يا أهل الحجرية بالشرائع.. كل من معه بقشتين قام يشارع... ليش ما تقعدوا زي خلق الله بلا دوشه.. ولا وجع دماغ؟

كان وهو يتكلم يهز رأسه كأنه يفكر في مشكلة صعبة واستمر قائلاً:

ـ وإلا عد تفتكروا أن معك عدالة مه؟.. الحاكم.. والعامل ما ينصفكم.. العدالة قتلوها.. أكلوها أصحاب الكروش، وأنتم يا رعوى هاتوا مئة ريال، هاتوا مئتين ريال، تسكبوها لأصحاب الكروش من غير حساب.. يا خلق الله بطونكم خاوية هكذا وإلا لا..؟

لم أستطع أن أجيب عليه.. فالشيء الوحيد الذي لم أكن أتوقعه هو أن يتكلم هذا الرجل عن الظلم والشريعة وأصحاب الكروش.. فالذي تعودناه نحن الرعية هو أن نرى العسكر هم بالدرجة الأولى أدوات هذا الظلم، هم الذين ينفذون أوامر الحكام ولا ينسى اليمني كيف كان هؤلاء العسكر يستبدون بالرعية. لكن العسكري لم ينتظر جوابي بل استمر وهو يعصر أوراق القات في فمه.

ـ إسمع يا خبير أنت رعوي هانا في القبيطة وأنا رعوي في «حاشد»[٨] معي هناك بيت وعائلة، مرة وأولاد ما شاء الله، لكن ما معانا بيس[٩].. ما معنا أرض.. هاناك المشايخ أخذوا الأرض، واحنا صبحنا عساكر تدوّر على رزق على لقمة.. قالوا.. الحجرية فيها ذهب.. جينا هانا أقسم بالله هانا ما في إلا الطمع والنهب والحسب كل رعوي يشتى ينهب صاحبه.. أخوه.. ناهي معكم «بيس».. لكن ما معكم أمانة.. ما معكم معروف. ما معكم محبة... والله لو قبرت في حاشد كان أحلى... هاناك جنب المره والأولاد.. شاندور على شغل.. شانجوع لكن ما شنشارع يا ناس والله ما كبرتا الكروش إلا من بيسكم أنتم يا الرعية.

وسألته وقد بدأت أقترب منه:

ـ طيب وأنتم العسكر ليش كمان تنهبوا الرعية؟

وتنهد بعمق قائلاً:

ـ ننهب الرعية؟ ما كل العسكر ينهبوا يا خبير واللي ينهب هانا ما هو أحسن من الحاكم.. أنت يا خبير تعطي الحاكم مئة ريال برضاك وقناعتك والعسكري تعطيه ريال وتقول للعسكر ينهبونا. ما هو كذا؟ العسكري مثلك في حاكم ثاني ينهبه في بالده بالحق أو بالباطل..

ونظر إلى السماء.. ثم توقف أمامي وأنزل البندقية من على كتفه ونظر إلي:

ـ قد هو عشاء.. هيا تصلي؟. تتأمم؟

ـ لا أحسن تتأمم أنت..

قال وهو يبتسم لي كأننا أصدقاء أعزاء:

ـ عد تقول إن العسكر يتأمموا بالقوة.. ماه؟ وضحكنا.

مضينا بعد الصلاة في طريقنا وكان يتحدث عن كل شيء.. عن زوجته التي لم يرها منذ ثلاث سنوات.. عن أطفاله.

ـ والله يا خبير إنني أشتهي الأولاد يكونوا متعلمين.. ما يكونوا عسكر مثلنا.. من غير علم، فين المدارس معنا فقيه.. والفقهاء ألعن من الحكام، همهم البيس.. الله وبالله انهم ما يعرفوا معنى القرآن بس يكذبوا على خلق الله، أفسدوا الدنيا بكذبهم.

ومع سيرنا كانت نسمات المساء تهب علينا بحنان وتتماوج أعواد الزرع على الأرض والخبير يتحدث عن حاشد وصنعاء.

وأطلت تحت أقدامنا قريتي وبدون أن أدري كنت أقول له.

المفاليس يا خبير بعيدة والدنيا ليل لازم تبات الليلة عندنا والصبح يفرجها الله.

نظر إليّ طويلاً وأجابني وعلى شفتيه ابتسامة عذبة:

ـ يا رعوي أنا عسكري والعسكر تعرف إن لهم مطالب.. دجاج.. قات.. مداع..

وأكملت بسرعة:

ـ وأجرة ماه؟

وضحكنا ونحن ندخل المنزل والعائلة تنظر إلي في حزن وخوف، فالعسكري معي وهذا يعني في نظرهم أن مصيبة قد حدثت.

(٧) مركز ناحية القبيطة في الجمهورية اليمنية.

(٨) إحدى قبائل اليمن الشهيرة.

(٩) نقود.


Shafik 2003

مضت – سلمى – مسرعة لتفتح السواقي في الأرض القريبة من الدار بعد أن بدأت السحب تتجمع في السماء، وحين عادت إلى الدار كانت أبواب السماء قد تفتحت وانسكب المطر، يروي عطش الأرض. لم يكن لدى سلمى عمل تؤديه في ذلك العصر، فالسماء تمطر وجميع من في المنزل يغطون في نوم عميق. فلم تجد إلا أن تخلو إلى نفسها في غرفتها وأن تتمدد على سريرها مولية وجهها الصغير شطر النافذة المفتوحة على الحقول. ورأت مياه المطر تندفع من السواقي إلى الأرض العطشى، لكن خيال سلمى انطلق بها بعيداً عن الأرض والمطر إلى أشياء لم تكن لتفكر بها، وسمعت صوتاً كأنه همسات رقيقة يقول:

سلمى ـ أخيراً ها أنت تواجهين نفسك. يجب أن تقولي الحقيقة، لا تحاولي التهرب من نفسك، فلن ينفعك ذلك يجب أن تقولي أن الانتظار قد طال وأنك لن تستطيعي التحمل أكثر من ذلك، حاولي أن تتذكري منذ كم غاب عنك «درهم» زوجك... من خمس سنوات كاملة يا سلمى؛ وها أنت في السنة السادسة من الانتظار؛ وكم عمرك؟ احسبي دون تعجل: أنت الآن في السادسة والعشرين. نعم لقد بدأت تشعرين بأنك قد كبرت... وبسرعة دون أن تدركي ودون أن تحسي بالحياة وتتمتعي بها... هل أذكرك يا سلمى أنك قد تزوجت منذ عشر سنوات؟ نعم، عشر سنوات. وذهب زوجك بعد أن تركه في أحشائك، دون أن يعلم، لم تخبريه كعادة الكثيرات في القرية، وظننت أنه لن يغيب كثيراً.

ولكنه غاب أكثر من المرات السابقة.

مهلاً يا سلمى لا تجعلينا نسابق الأحداث.. لم لا نبدأ من البداية، منذ أن ولدت، أعني منذ أن تزوجت. ألست على حق؟

نعم إن ذلك ظاهر على وجهك.. لقد كنت صغيرة عندها، في السادسة عشرة من عمرك تعيشين في بيت والدك. وذات يوم سمعت همسات كثيرة. ونظرات مصوبة نحوك. وأحسست بما يدور حولك وشعرت بالسعادة ككل طفلة تفرح بعرسها ـ ولم تظهري فرحك ذلك للناس حتى لا تلوك الألسنة سيرتك ولكنك أبديتها لي.. أنا.. كنت أعرف كل شيء – لقد كنت سعيدة لأنك ستتزوجين «درهم»، وحين أقبلت عمتك وغطت وجهك «بالمقرمة» قائلة: «ثبت زواجك على درهم قاسم» أبديت مقاومة شديدة، وجعلت تقذفين بالشتائم كل من حولك ولكنك في أعماقك كنت فرحة، وسالت الدموع.. دموع الفرح في عينيك، وظن الذين حولك أنك تبكين حزناً على فراق والدك.. ومنزله..

وعندما أتى أهل زوجك لنقلك إلى دارك الجديدة كنت تسرعين في الخطو، لتصلي بسرعة. ونبّهك الذين حولك، وشعرت بالخجل إذ خفت أن يكتشف الآخرون سر تلهُّفك وسرعتك.

ولكن يا سلمى. أكنت تحبين درهم حقاً؟

كلا – لا أظن!!

إذن ما سر سعادتك تلك؟

ألأنك طفلة؟ أم ظننت أنك ستخلصين من بيت والدك؟ من تلك الأعمال الشاقة التي كنت تقومين بها هناك؟ كنت تظنين أنك ستجدين الراحة والهدوء في منزل زوجك، فهل تحقق ذلك؟

لنرَ يا سلمى حياتك الجديدة في منزل زوجك، فبعد الأيام السبعة الأولى.. أيام العرس.. بدأت عملك كزوجة تخدم زوجها وأهله..

كنت تستيقظين من نومك مع أذان الفجر، فتحلبين البقرة ثم تذهبين إلى البئر بعد أن تضعي أمام البقرة بعض الحشائش وبعد أن تمتلئ جرتك بالماء تعودين لاعداد الفطور لزوجك، وعند اقتراب الظهر تذهبين إلى الحقول لتعملي مع والد زوجك في الحرث والبذر والتنقية لتعودي منهوكة القوى لتعدّي وجبة الغداء – تطحنين الحبوب ثم تعجنينها كي تطعمي زوجك.



وبعد الغذاء يذهب لمضغ القات في حين أنك لم تتناولي غداءك، وهو غالباً ما يكون كإفطارك: قليلاً من الخبز مع رشفات من – القشر – أو عصيدة مع لبن.
ويأتي عمل ما بعد الظهر.. غسيل الملابس.. الذهاب إلى الجبل للبحث عن حطب للوقود.. الذهاب إلى البئر مع غروب الشمس لتأتي بماء المساء والتقاط بعض الحشائش للبقرة، وبعدها تعدين العشاء وتقدمينه لزوجك الذي يعود من المسجد بعد أداء الصلاة. وأنت كم مرة نسيت الصلاة وأنت ترتمين متعبة قرب منتصف الليل، لتعودي مع أذان الفجر إلى العمل.. إلى الإرهاق..
هذه هي حياتك كل يوم، هل فيها شيء جديد؟
إنها نفس الحياة التي كنت تعيشينها في منزل والدك لم يتغير إلا صاحب العمل.. كان في السابق والدك، أما الآن فزوجك. عشت معه أياما، تركك بعدها إلى المدينة لكي يعمل ولم تحاولي منعه، بل أنك دفعته للسفر، لأنك تريدين أن يعود إليك ومعه قمصان حرير جديدة.. أدوات نسائية كتلك التي يعود بها أزواج صديقاتك.
ولم يخيّب زوجك أملك، عاد إليك بما كنت تحلمين بعد أن غاب عنك سنتين.
لم تتغير حياتك، أثناء وجوده أو في أثناء غيابه: ففي كلا الحالتين كنت تعملين بصمت من أجل أهله ومن أجل الأرض. يا سلمى عاد زوجك إلى المدينة، وغاب سنتين، ثم عاد مرة أخرى ليتركك بعدها وفي أحشائك طفلك الأول، وانتظرت عودته إليك وإلى طفله ليراه، ومضى عام.. وآخر، فخمسة ولم يعد. إنه ما زال حياً هناك بعيداً في البحر.. البحر الكبير الذي يقولون إنه بلا نهاية. بحر كبير في أحضان بحر آخر أكبر يخوضه زوجك كل يوم.
وما أدراك يا سلمى أنه وحيد؟ لا تجعلي وجهك يصفر ولا ترتجفي. فكل شيء ليس سوى افتراض. فهو قد يكون وحيداً وقد لا يكون، فالرجال لا أحد يثق بهم.. خاصة حين يكونون بعيداً، لا تراهم عيوننا. فلم لا يكون زوجك أحدهم؟ أنت تعرفين قصة عمك ـ زيد ـ الذي ترك زوجته منذ عشرين عاماً.. ولم يعد. إنه حي وله زوجة وأولاد ويقولون إنه لن يعود وزوجته لا تزال تنتظر هنا.
فلم لا يكون زوجك مثل عمك؟ نعم لماذا لا يخونك؟ إنه بشر.. ورجل.. وهم دائماً ضعفاء كما يدّعون. قلت لك لا ترتجفي. ولا تدعي الشكوك تساورك فكل شيء افتراض، فالحقيقة مجهولة، هناك وراء البحر مع زوجك. ثم لا تحاولي أن تفكري أن تفعلي مثله.. أن تخونيه.. إنك لن تستطيعي، فهنا في القرية كل همسة يسمعها جميع الناس. ألم تلاحظي مثلاً في هذين اليومين الأخيرين أن الجميع يلاحقونك بالنظرات المليئة بالشك؟ ألم تلاحظي ذلك؟ لماذا يقذفونك بنظراتهم الصامتة تلك؟ إنك ذكية يا سلمى وقد عرفت..
إنك تتجملين.. نعم تتجملين، فهم لم يرونك تتجملين منذ سافر زوجك منذ خمس سنوات.. ولا تحاولي أن تقولي انك شعرت بكبر سنك فحاولت أن تبدي صغيرة. كلا فتلك طريقة غير محببة.
فالحقيقة يا سلمى إنك تتجملين من أجله. من أجل «حسان» لا.. لا.. لا تجعلي قلبك يدق بهذه الشدة ولا تدعي الدماء يحمر وجنتيك، فهما سيكشفان سرك، أرأيت أنك مغرمة به؟
ليس عيباً أن يحب المرء من شاء.. ولكن العيب في أن يخون.. فأنت تخونين زوجك بحبك لآخر.. نعم.. إن الأمر جد خطير.. فالمرأة هنا ليس لها الحق بأن تحب من تشاء ولا أن تتمتع بشبابها فهي مجرد خادمة، يتزوجها الرجل لتخدم أهله.. ويتركها ويمضي بعيداً جداً.. ولا يعود.. وليس من حقها أن تطالب بالطلاق.. فالطلاق مكروه.. لا تضعي يديك فوق صدرك.. فالطلاق ليس مكروهاً ما دمت ستتمتعين بحياتك التي سرقها زوجك.. لكنك.. لن تحصلي عليه. خاصة بعد أن مات والدك وليس لك من أحد يدافع عنك.. فأنت الآن خادمة، لأهل زوجك، لوالده، لإبنه، لأرضه.. إنك لن تجني أية فائدة بحبك «لحسان» إنه شاب طيب تتمناه كل فتاة.. ولكنك لست فتاة – إنك امرأة لك طفل.. وزوج.. ثم هل تظنين أن أيام الطفولة حين كنت تلعبين معه في الجبل ويتخذك دائماً زوجته وأنتم تلعبون لعبة «الزوج والزوجة» تلك الأيام قد ولت.. وأصبحت أنت اليوم كبيرة – خمس سنوات من الانتظار الطويل صعبة يا سلمى ولكن ما هو الحل؟
أن تطلبي الطلاق؟ وطفلك أين سيذهب؟
ثم من الذي سيتخذك زوجة له؟
أنت تعرفين تماماً أن الكثيرات بقين بدون زواج بعد طلاقهن وأن شباب القرية يبحثون فقط عن الفتيات. وأرضك يا سلمى. نعم أرضك هذه التي بذلت فيها حياتك.. شبابك.. دمك.. أرضك التي تسكبين عليها طوال الأعوام عرقك. كيف تدعين أرضك هذه ولمن؟
إنك تفكرين يا سلمى.. وهذا شيء طيب – أنت تعرفين أن لا أحد سواك يعرف قيمة هذه الأرض.. فزوجك إن عاد لن يهتم بالأرض.. وإبنك عندما يكبر لن تهمه هو أيضاً – سيتركها كما فعل والده ويذهب هناك بعيداً مثل الآخرين.
أرضك يا سلمى ذرفت عليها الدم والجهد ومنها تأكلين طوال العام. ومنها يأكل إبنك ويترعرع فوق ثراها. حتى زوجك حين يعود يأكل منها وأنت.. أنت من يخرج خيرات هذه الأرض. منها حبوبك وحشائش ماشيتك – ولبنك وسمنك.. وكل شيء في هذه القرية.. من الأرض. أليست الأرض حياتك.. وحياة ابنك الذي سيعرف عندما يكبر مدى الجهد الذي بذلته؟
أما «حسان» فهو كزوجك تماماً لن يعيش في القرية إلى الأبد.. سيغادرها غداً بعد أن يكون قد ترك امرأة وراءه تخدم أهله وتحرث الأرض وإن كنت أنت هذه المرأة. فما الفرق بين حياتك هنا وحياتك في بيته؟ لا فرق يا سلمى لا فرق.
وغاب الصوت وسلمى تنظر حواليها في ذهول ومياه الأمطار تتساقط في نغمات حالمة على الأرض فتنساب جداول إلى مدرجات الزراعة وتعانق جذور الزرع الأصفر وتهبه الحياة.
وفتح باب الغرفة.. دخل إبنها الصغير وارتمى في أحضانها وسلمى تهتف بداخلها – سأعلمه.. سأعلمه كيف يحب الأرض.. بينما كانت المياه تغوص في أعماق الأرض.

١٩٥٨

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحاً، وكنت أسير وحيداً إلى «المعشار» لعلي أجد هناك شخصاً ما أقضي معه ساعة من الزمن حتى يصل القات.

كان عمي قد ذهب لاصلاح ما أحدثته الأمطار من خرائب في أرضنا وصحب معه بعض العمال وترك خلفي أكثر من شخص يطالبونني بإرسال قات لهم.

الطاحون هو الشيء الوحيد الصاخب في جو القرية التي كانت هامدة ككل أيام السنة، وكانت قصبته التي ترسل القليل من الدخان رابطي الوحيدة بعدن حيث أعمل في مصافي البترول، وكم كنت أشتاق للقرية حين أكون بعيداً عنها، ولكني سرعان ما أمل حياتي الرتيبة التي تتكرر يومياً وبدون هدف، حياة كلها سأم: مجرد أكل وشرب، ومضغ قات، ونوم هكذا يومياً! لا تغير هناك حتى ولو كانت قريتنا الصغيرة – التي يتبارى ساكنوها بابداع كل أنواع الجمال لتحسين بيوتهم – مليئة بالشباب الذين كانوا يقضون أيام عطلهم في القرية في أحضان نسائهم.

ونادراً ما نلتقي، إذ كان «المعشار» مجمعنا الصغير حيث نبقى هناك في انتظار وصول بائعي القات، ولكن لا يكاد صوت المؤذن يرتفع ظهراً حتى تكون القرية فارغة من جديد، الجميع في منازلهم يستعدون لمضغ القات والهموم والضجر.

ـ ايه.. ايه.. إلى أين أنت ذاهب؟

كان صاحب الطاحون ينفض عنه غبار الدقيق العالق بكل ملابسه ووجهه.. واستمر قائلاً دون أن أُجيبه:

ـ يقولون «ابن الحاج» مريض جداً.. ما الذي يمكن عمله الآن؟ لا حول ولا قوة إلا بالله..

ـ «مسكين» قلتها ببلاهة.

ولم أتم كلامي حتى كان قد غاب داخل الطاحون وسمعت صوته يرتفع وكانت هناك أصوات نسائية أخرى، واستمرت قدماي في مسيرهما نحو ملتقى القات.

كان «ابن الحاج» قد أصيب بالشلل منذ أكثر من عام، ولكن المرض عاوده بشدة منذ يومين إذ انتقل الشلل من الجانب الأيمن إلى الجانب الآخر وأصبح المرض يهدد قلبه بالتوقف.

ـ عبد الرحمن.. عبد الرحمن انتظرني قليلاً سنسير معاً. كان ذلك صوت شاهر نعمان.

ـ هيا يا أبنائي، يا لكم من عفاريت، دائماً ورائي، ورائي.

إنه كالعادة مشغول بأولاد ابنه.. دائماً يحملهم معه على كتفه أو يسوقهم كالغنم أمامه أينما سار.

كان قد تعدى السبعين من عمره ولكنه كان يملك قوة شباب، وكثيراً ما تحدى الذين يدعونه «بالعجوز» وسمي لذلك «بعنترة».

ـ أين كنت منذ الصباح؟

قالها وهو يتابع أطفاله بقلق.

ـ لقد استيقظت منذ قليل.

أجبته دون أن ألتفت إليه وقد وضعت عمامتي الصغيرة البيضاء على رأسي أتقي بها لسعات الشمس الحارة.

ـ هل أنت في طريقك إلى المريض؟

ـ لا...

كان أطفاله قد سبقوه، وبدأ يسير بجانبي بخطواته المشدودة وقال:

ـ لماذا؟

ولم أجب. لم أر المريض منذ بدأ يمرض، حتى إنني حاولت زيارته غير مرة ولكني عدت من باب المنزل لأن المرض يخيفني وأكره شيء عندي هو زيارة مريض.

ـ إسمع يا عبد الرحمن: هل انتقل المريض حقاً إلى جانبه الأيسر، وهل صحيح انه لا يستطيع الحراك؟

نظرت إليه دون معنى، كنت أعرف ان المرض قد استفحل ودون انتظار رد مني قال:

ـ لكنه كان بالأمس يستطيع التحرك؟

واستمر يقول بعد أن حمل أحد أطفاله على كتفه:

ـ قبل يومين كنا معاً وكان حكماً بين الحاج اسماعيل وصهره، وكان يضحك وصحته طيبة. كان قد بدأ يتغلب على المرض.

وأضاف بعد أن تنهد بضجر:

ـ يا إلهي هذه قرية ملعونة، إذا مرض فيها إنسان لا يجد إلا الموت في انتظاره، أوه أما المدينة ففيها كل شيء: دكاترة ومستشفيات وعناية بالإنسان.. و..

كنا قد وصلنا قرب شجرة «الاثاب» التي تظلل الطريق وحيث نلتقي ببائعي القات، وأمامنا كانت تنتصب دار المريض، وكانت فتاة صغيرة تجري متجهة نحونا، وعلى سقف الدار كان شخص ما يقف هناك، وتوقف شاهر عن الحديث وهو ينظر إلى الدار وقال:

ـ اسكتوا يا أولاد! دعونا نسمع ما الذي يقوله...

والتفت نحوي قائلاً:

ـ هل تسمع شيئاً؟ اسكتوا يا أطفال.

وصاح بأعلى صوته.

وأتى صوت الرجل الواقف هناك تتقاذفه الرياح بطيئاً... متقطعاً.. فيه رنة بكاء:

ـ يا جماعة.. الراجل.. توفي..

ـ صدق!!؟ قالها شاهر بسرعة.

وأتى الصوت من جديد.

ـ يا جماعة.. الراجل.. توفي.

كان الصوت يبكي وهو يعيد ما قاله.

ووقفت مشدوداً إلى الأرض كأن آلافاً من الأطنان قد انهالت علي فجأة.

ـ توفي.. مات..

لم أكن أعرف ما أعمله.. فقط.. كنت أرتجف.

ـ يا الله يا أولاد إلى المنزل.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان شاهر يقود أولاده وهو مشدوه تماماً، ينظر إلي ويردد كلاماً لم أسمعه، لعله كان يقرأ شيئاً من القرآن.

سأعيد الأطفال إلى المنزل وسأ...

نظرت إليه بعينين مفتوحتين، وفي داخلي آلاف الأفكار تعذبني، وقلت:

ـ ها.. ما العمل؟ ما الذي سنعمله الآن؟

لم يجب، واستمر في تحريك شفتيه، وكان الأطفال يسيرون أمامه وقد حواهم صمت غريب كأنهم شعروا بأن شيئاً غريباً قد حدث. ومضى شاهر بعيداً.

كنت محتاراً، لا أعرف إلى أين أتجه، هل أذهب إلى حيث يوجد الميت، أم أعود؟ ومرت الفتاة الصغيرة، وكانت تجري ناحية الطاحون، وسمعت صوت شاهر يقول:

ـ كيف عمك يا بنت؟

أجابته وهي منطلقة.. شبه مشدوهة:

ـ يقولون.. نعم.. مات!!

بقيت وحيداً في الطريق، أمامي دار الميت، وخلفي طريقان طريق إلى الطاحون والمنزل، وطريق إلى المقبرة، ومع التفاتي لكي أعود إلى المنزل كانت أمامي من بعيد تبدو مشاهد القبور، لست أدري أية قوة جعلتني أرتجف.

كانت القبور تكبر والمشاهد تتحرك، الموت شيء رهيب. وفي لحظة خاطفة شعرت بطعم غريب في فمي، وأحسست بالخوف: وأنا هل سأموت أيضاً يوماً ما؟ وكيف؟ ما أبشع أن يموت الإنسان، أن تتوقف فيه الحياة.

وأسرعت إلى الطاحون، أريد أن تختفي المقبرة من أمامي؛ ورأيت الطاحون يرسل نفثات كبيرة من الدخان وبصوت مرتفع كأنه يلفظ أنفاسه، وكانت حلقات الدخان ترتفع عالياً، سوداء ثم تغيب في الفضاء، هل هكذا ترتفع روح الإنسان؟ كان الطاحون قد توقف عن العمل.. عن الحياة.

وسمعت صاحب الطاحون يقول وهو ينفض غبار الدقيق من كل مكان في جسده:

ـ متى.. ها.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

وكانت الفتاة الصغيرة واقفة أمامه تنظر إليه باستغراب وترقب منتظرة أن يعمل شيئاً.. أن يصيح مثلاً كما فعلت أمها.. أن يضرب رأسه في أي شيء، أن يبكي، أن يرتمي على الأرض ألم يخبروها أن تقول له «أن عمي.. نعم.. مات» كل ما رأيته هما شفتاه تتحركان ولا شيء آخر.

ـ اذهبي.. سألحق بك بعد قليل.

* * *

كان عدد قليل من الناس لا يتجاوزون عدد أصابع اليد فوق سطح منزل المتوفي، كان البعض يخيطون الكفن حين أطللت عليهم ولم أكن أعرف ماذا أعمل، هل أجلس، أم أشاركهم في الخياطة، لكني سرعان ما اخترت ركناً ورحت أنظر إلى القرية التي كانت لا تزال صامتة، كأن شيئاً لم يحدث، وكأن لم يمت فيها إنسان منذ أقل من ساعة.

أين الفقيه يا جماعة؟

التفت لأرى من تكلم، كان الجميع مشغولين بعملهم، ربما كان أحدهم يريد أن يسألني.. فأجبت:

ـ لم أره منذ أمس.

قال صاحب الطاحون بسرعة:

ـ ذهب اليوم إلى الجبل لإصلاح الأرض هناك.

ـ لماذا لم يبق ما دام يعرف بأن الرجل مريض؟

قلتها دون أن أنتظر الرد لأني عدت إلى النظر في القرية من جديد لعلني ألمح أحدهم قادماً أو لألعن هذه الحياة القذرة التي تجعل الناس لا مبالين، حتى حين يغادر هذه الحياة إنسان فإنهم لا يودعونه إلا بعد إلحاح، وإلا أين ذهب كل سكان القرية؟

وسمعت صوت أحدهم يقول:

ـ لقد حضر الفقيه إلى هنا في الصباح وقد رأى الرجل في حالة خطيرة ولكنه بالرغم من ذلك لم يبال وذهب وراء أرضه.

ـ الطمع يا شيخ.. الدنيا طمع..

قالها أحدهم وعاد إلى الإبرة والثوب الأبيض الذي سيكون اللباس الأخير لرجل مات منذ ساعة.

ـ من يتطوع إذن لإحضار الفقيه؟

قلتها وأنا واقف استعداداً للبحث عنه وهروباً من ذلك الجو القاتم الذي يخيم على المنزل.

لقد أرسلنا «علي» للبحث عنه.

ـ أين؟

ـ هناك، خلف الأكمة.

ـ أوه لن يصل إلا وقد دفنّا الرجل.

قلتها وعدت إلى مجلسي، ودخل «الصوفي» في تلك اللحظة واتجه ناحيتي وجلس.

ـ هل وصلت الآن فقط؟

ـ لا.. لقد حضرت الصباح وقلت للجماعة بأن الرجل يحتضر، إذ ان المرض قد أنهكه.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

والتفت إلى الحاضرين وقال:

ـ أين ذهب الناس؟

أجبته وأنا أشير إلى القرية والأرض

ـ هناك.. لديهم أعمال.

قال بعد أن تنهد:

ـ ايه.. لم يعد الناس للناس، زمان يا ابني كانوا يقولون فلان مريض فتجد كل الناس يتسابقون لزيارته ومساعدته.. دنيا.. آخر الزمان لا حول ولا قوة..

أنهى كلامه بهزة من رأسه فيها كل اليأس والأسى.

سألته قائلاً:

ـ هل رأيت الميت الآن؟

ـ لا.. لا أستطيع أن أرى ميتاً..

ـ كيف وأنت «صوفي» تداوي الناس؟

ابتسم قائلاً:

ـ أنا أداويهم ولا أميتهم، المريض سأراه وأعالجه، أما الميت...

وهز رأسه مرات...

وسمعنا صوتاً يقول:

ـ يا جماعة.. من سيغسل الميت؟

ـ الفقيه حين يحضر..

ـ لن يأتي الآن، وقد يتأخر كثيراً.

وأشار الرجل إلى الصوفي وقال:

ـ أنت يا صوفي وأنا سأساعدك.

هز «الصوفي» رجله بشدة قائلاً:

ـ لا.. لا.. لم أغسل ميتاً في حياتي.

ـ إذن أي واحد منا يا ناس، سيتجمد الرجل تحت.

وبدأ نقاش طويل، ولم يتفقوا على رأي.

وقال أحدهم:

ـ والجنازة، أين المحمل؟

ورد آخر:

هناك في المسجد.

وصاح بجماعة كانت قرب المسجد لإحضار المحمل.

مرت أكثر من ساعة ولم يصل إلى حل، والنساء يرفضن أن يغسل ميتهم إلا الفقيه.. والفقيه لا أثر له..

كان الكفن قد أعد. والقبر قد حفر، والمحمل بالباب: كل شيء جاهز.. إلا الفقيه..

يا ناس، دعوا أحدكم يذهب وراء الفقيه..

ـ لقد ذهب «علي» منذ زمن.

ـ هناك شخص تحت الجبل.

وانطلق صوت قوي من جانبي يسأل عن الفقيه كان يا يزال في الطريق.. إنه في الطريق.

وتغامز بعض الناس حين رأوا بائعي القات من السقف وقال أحدهم:

ـ أعوذ بالله، ألا يستطيعون الصبر قليلاً؟ الدنيا شغلتهم، يا رب تنجينا.

ثم التفت إلى رجل رآه يتحرك لترك المنزل نحو القات وقال له:

ـ خذ ريال وخذ لي معك قات أيضاً..

وابتسمت وأنا أترك المنزل للآخرين.

وغاب الرجل تحت الأرض، وكانت كلمات المسيح ترن في أذني طوال الطريق..

«فليدفن الموتى موتاهم».

وكنت يائساً، بالأمس كان هناك إنسان معنا، بل إنه كان منذ ساعات يعيش ويتألم، وها هو ذا قد انتهى. ما الذي خلف على هذه الأرض من ذكرى، إنني متأكد أنه سينمحي من أذهان الناس بعد أيام.. بل انه قد انتهى قبل أن يدفن.. انتهى والناس يبتاعون القات، انتهى وكل واحد يتعجل الدفن ليذهب إلى منزله. انتهى قبل أن تقوم تلك المناقشة فوق قبره حين قال عمه يرد على الفقيه الذي طالب بإقامة «ليلة ذكر» للميت وأن تذبح الغنمة الوحيدة التي يملكها.. حين قال:

«الأيتام أحق بها.. الأيتام أحق بها..»



ـ هل أنت خائف ؟

ـ لا، إنني أرتجف.. ربما ذلك من البرد.. أو...

وصمت قليلاً وراح يحملق في الفضاء أمامه، وعادت عيناه بعد أن اصطدمتا بقمم الجبال السوداء، التي تحتضن الوادي العميق، النائم في صمت خرافي، صمت خاله أبدياً، حتى وهو يردد صدى طلقات نارية بعيدة.

ـ أنت جائع..؟

ـ ربما، إنني لم أذق طعم أكل حقيقي منذ أيام بعيدة.

ـ والخبز...؟

ـ لقد مللت منه...

ـ ايه... إنك مغفل، أتعرف.. إنني أتذوق له طعماً رائعاً؟ لقد مللت ما تسمونه أكلاً حقيقياً. عشرون عاماً، ذقت فيها كل شيء، من الثعابين الصينية حتى شربة الضفادع الافرنسية و...

ـ هل ستبدأ في قصة ذلك من جديد..؟

ـ ولم.. لا، قد يمضي الليل سريعاً، فلا نشعر بالسأم.. أو الخوف..

ـ أو الجوع.. أليس كذلك..؟

ـ ربما..

ودوت طلقة من بعيد رددها الأخدود، فارتجف.

ـ ألم أقل لك إنك خائف...

ـ أرجوك، إنني أشعر بالبرد فقط.

ـ أنظر: ألا تشعر بشيء جديد في هذه الليلة؟

ـ ما هو؟ قالها بصوت خائف...

ـ لقد أمطرت السماء في النهار.

ـ إذن؟

ـ ألا تشعر بلون المطر الذي غسل كل شيء.. حتى لون القمر...

وأشار بيده إلى القمر.

ـ الأفضل أن تترك يدك على زناد بندقيتك...

ـ أوه... ألا تنظر ما أروع كل شيء..؟ هل تخيلت عمرك منظراً ساحراً كهذا.. القمر يرسل ضوءه كشلال المطر الذي تساقط نهاراً، حتى النجوم تشبه انطلاقة القطرات من السحب. إن للمطر لوناً لا تشعر به، إلا عندما توده، وتود تلك الأحياء التي يتساقط فيها، لم أكن أتأثر بالقمر أو بالمطر وأنا في الباخرة، كان ذلك يذكرني بالقرية، أنت لا تعرف معنى البحر أن تقضي فيه أعواماً، تشويك الشمس، ويلتهمك المساء بصمته، كنت مستعداً لدفع حياتي ثمناً لمنظر كهذا، ألا تلاحظ قمم الجبال المقابلة؟ إنها واضحة كل الوضوح، بكل تفاصيلها. أنظر هنالك، سأدفع حياتي ثمناً لهذا، يا إلهي، كنت أظنها مجرد مغامرة، أن أحمل السلاح وأمضي وأنشد أناشيد الثورة، كتلك التي أسمعها من عمال الموانئ في فرنسا، عن الثورة، ونابليون والمارسيلييز، ولكن هل رأوا شيئاً رائعاً كهذا؟ إن القمر يكشف لك كل شيء، نعم، كل شيء...

و.. ضغط على زناد بندقيته، وردد الجبل الصدى، وارتجف الجسد الممدد بجانبه.

ـ مالك.. هل جننت؟

ـ لا.. لا شيء، القمر رائع، لقد هوى، ألم تلاحظ شيئاً؟ لذلك أنا أعبد القمر، الضوء الخافت، إنه لا يعطيك كل الصورة، الظلال تكفي، لا ترتجف هكذا يا عزيزي، أنت لم تتعود البرد في ـ عدن ـ، هناك الشمس مضيئة دائماً، ولكنها تثير الضيق أحياناً، أنت لم تر جبال الثلج عشرين عاماً عملت فيها ملاحاً، رأيت كل البحار، وسمعت كل الحكايات، إلا أن أكون جندياً في صفوف الثورة، تلك آخر أسطورة كنت أتصور حدوثها، ولكنها حدثت.

ـ إسمع يا عزيزي، لقد سمعت ذلك للمرة العشرين، ولكنك لأول مرة تثبت لي بأنك رام جيد، لعله يتألم هناك، أو ـ لعله قد مات. لم ألاحظ أي شيء، لم أره إلا بعد أن هوى.

وصمت قليلاً، ثم قال:

ـ ولكنك كنت تعيد علي كل ذلك من جديد، والقمر هو القمر، الذي يوجد في كل ليلة والنجم والأمطار.. لا شيء إلا أنني غرقت في الأوحال وأنا أطارد ذلك الأرنب اللعين ظهر اليوم، لقد كنت أرسم في مخيلتي مائدة لذيذة لأرنب مشوي، ولكني لم أجد سوى الخبز اليابس!

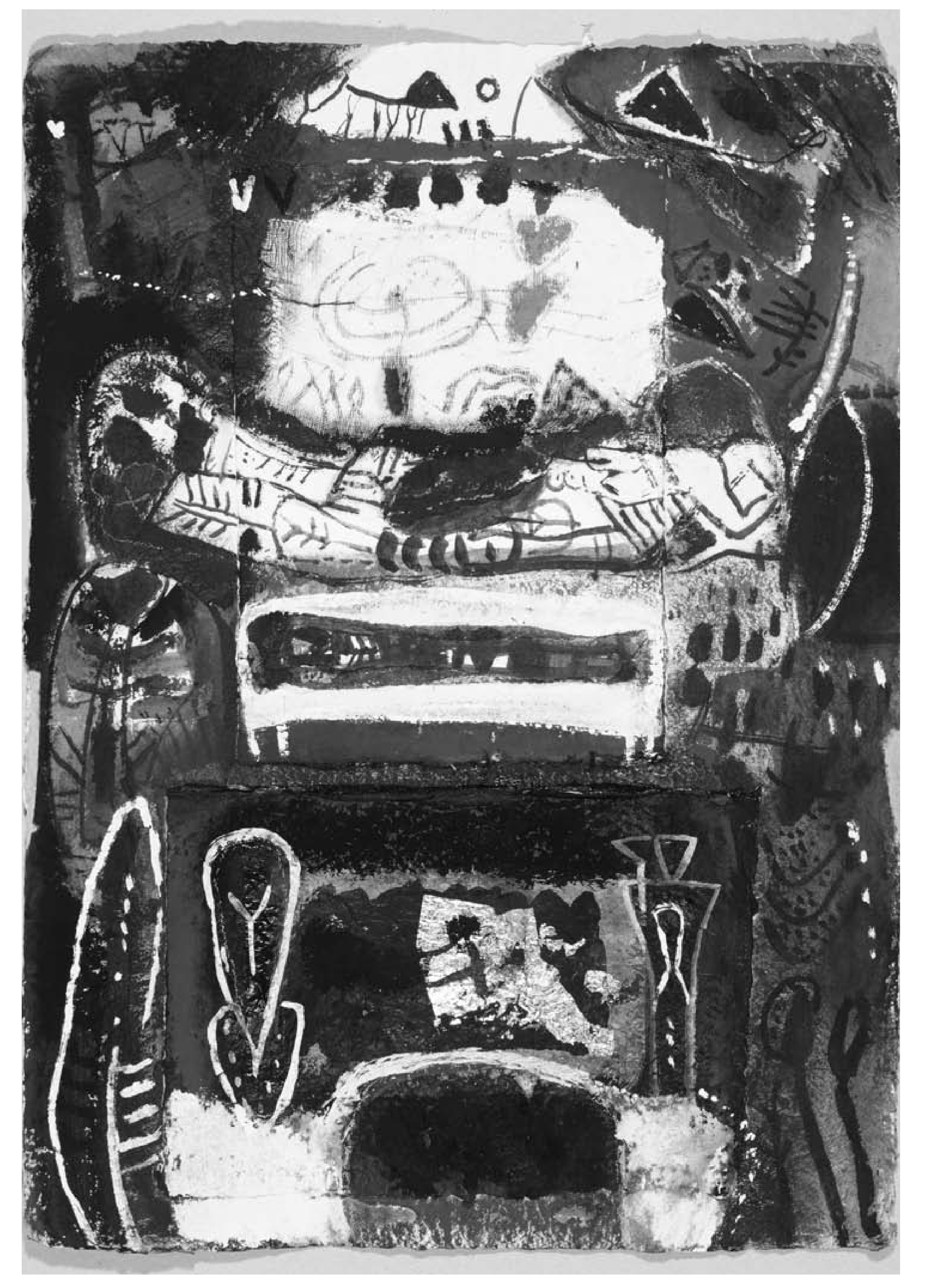
وهبت رياح باردة كان لها صرير وهي تعبر شقوق الأخدود، وردد الجبل صدى إنسان يصرخ.. لم يجب عليه أحد، فمات الصدى، وهوى إنسان في القاع، وارتطم حجر في الوادي العميق.

ـ إسمع، إسمع.. هل تحس بشيء؟

كان صوته خائفاً، وشد بقوة على البندقية.

ـ لا تخف، إنه صوت هدير المياه، إنه السيل القادم من الشمال، كانت الغيوم تغطي كل المنطقة منذ الصباح، هذه المياه القادمة بصخب هي حصيلة الأمطار التي هطلت، ألا تشعر بصوتها العذب؟ يخيل إلي كأنه هدير جنود يزحفون إلى الهدف، دونما خوف، يمزقون الصمت والجبن، لقد تناسوا كل شيء، حتى وجودهم، إنه يندفعون، كل واحد يتشجع لأن آخرين بجانبه، لو كان وحيداً.. لفر.. ولكنهم جموع. أتدري، إنهم أكثر من شخص واحد، أتسمع ارتطامهم بالجبال؟ وحتى تساقط الأشجار لا تهمهم، إنهم يندفعون، كل واحد يشجع الآخرين، دونما خوف، دونما خوف.

وكان السيل قد بلغ الوادي، كانوا ممتدين على قمة الجبل وكان الماء يندفع بشدة وقد حمل أمامه أشياء كثيرة لم يلاحظوا منها شيئاً، والماء يرتفع وينخفض بعنف، وصوت ارتطامه يرتفع ويرتفع، حتى ظنوا بأنه سيلتهمهم. وضمهم صمت عميق والماء يمضي من تحتهم



بعيداً، كثعبان أسطوري خرج فجأة من أعماق الجبال بعد سجن دام قروناً، وراح يحطم كل شيء..

ـ ونحن أيضاً مثله، لا ندري ما يلتهم أمامنا، ولكننا نمضي بعنف، ولكوننا مجموعة فنحن لا نشعر بالخوف، لا يهمنا. ثم نرتطم، إنها البداية، والبداية عنيفة دونما حدود، كل شيء مباح وقانوني.. ما دمنا في النهاية سنسقي حقولاً، وما دمنا نعطي الصحراء لون اخضرار رائع، بساطاً من السعادة، إن إندفاعنا لن يستمر طويلاً، سنهدأ بعد قليل، ولكنا سنعطي الأرض لوناً آخر! حياة أخرى.

وساد صمت. وكان القمر حنوناً. والسيل قد مضى بعيداً.

ـ وماذا عنها؟ هل كتبت لها شيئاً؟

ـ مزقت كل شيء.. مع من سأرسل رسائلي؟ عدن.. إنها بعيدة الآن.. ما كان أغباني! قلت لها إنني سأكتب لها دائماً، لعلها تعتبرني الآن بطلاً، وتنتظر مني أن أحكي لها أساطير عن بطولاتي، إنها لن تصدق بأنني أرتجف عند سماع طلق ناري، وكأن الرصاص ينغرس في أعماقي، أنت أكبر مني، لقد رأيت عوالم فسيحة، ولعلك تسخر مني الآن.. أما أنا..

وضحك بحزن.

ـ أنا مجرد طفل.. لا يجيد سوى الحساب والكتابة و.. التحدث عن الوطنية بحماس أجوف.. الشيء الكبير في حياتي هو أنني هنا. كنت مستعجلاً في قراري هذا، لو فكرت قليلاً، قليلاً فقط، لما كنت هنا ـ إنه الحماس، أنا الذي تحدث في الوطنية حتى مل الناس منه، وها هي ذي الثورة، كيف أقف بعيداً عنها؟ كثيرون قالوا لي تطوع، تطوع، وتطوعت، لم يمض على زواجي سوى أشهر، لم أفكر فيها، قال لي والدها، لا تخف... أنا هنا... وقال الأصدقاء، نحن هنا.. وها أنذا، ستخجل مني لو قلت لها ما هي الحرب، وما هو الخوف.. أقول لنفسي، إنني أخاف من أجلها. ولكني كاذب، إن طعم الحياة أشعر به هنا على لساني.. عند كل طلقة رصاص.

ودوى طلق ناري، وارتجف، وجفّ ريقه..

ـ لقد هوى، إنهم ملاعين، يعرفون أن القمر يكشف القمم فيتسلقون الصخور، ويبحثون عن فجوات، ولكنه هوى، هل تشعر بشيء؟

ـ لا، لا.. إنني خائف حتى الموت..

ـ لا، لا تقل ذلك، استمر في حديثك، كأن شيئاً لم يحدث...

ـ أنت شخص آخر، قاتلت اليوم، وقاتلت من قبل، وربما أكثر من مرة.

ضحك البحار قائلاً: ـ ومع أكثر من جهة، وبدون مبرر. أما اليوم، فأنا أحارب من أجل شيء. ربما كان ذلك هو لون المطر، في بلادنا. من قبل حاربت مع الإيطاليين، ثم عدت فحاربت مع الانجليز، ثم عملت مهرباً للأسلحة، ولكني لم أشعر بأي لذة، لم تكن الجبال، ولا القمر أو النجوم حتى ولا لون المطر في بلاد الناس تثيرني، كنت أحلم بهذا، هذا الهواء البارد، هذه القمم العارية، هؤلاء السخفاء المتسللين، صائدي الذهب والسلاح، والغباء، والحالمين بعيد الثورة، حلمت بكل هؤلاء، ولم أعرف بأنني، وتحت هذه الأمطار، أمطار بلادي، سأكون أنا صائداً، إيه يا بني.. عرفت أرصفة موانئ الدنيا كلها، نمت على حصاها، تشردت في أزقة مارسيليا، وكنت جائعاً، عملت أياماً وليالي، في مخازن الفحم، وعند لهيب الأفران، وتحت سماء مثلجة، عرفت معنى أن تحارب حرباً ليست هي حربك، صعب أن ترى وجوهاً جائعة، و.. الآن.. ألا تريدني أن أصرخ فرحاً هنا: «لكم أنا سعيد. لكم أنا سعيد؟!» آه.. سأقص كل هذا، لكل الناس وفي كل مكان، آه لكم كنت أخجل أن أقول لهم من أين أنا، أما الآن، فلن أخجل مطلقاً، بل سأقص عليهم قصتك، ابن ـ عدن ـ النائم شبه عار وجائع، فوق قمم الجبال، في برد لم يعرف طعمه، يتغذى بالخبز وحده، ويحلم بأرنب مشوي، ويكتب رسائل خياليه لامرأة أكثر خيالاً.

ـ إنني لا أكذب..

ـ لم أقل لك ذلك، كل شيء هنا واقعي حتى أصبحت الواقعية لا تصدق!

عيناهما تبحث عن شيء أمامهما، شيء غير الصمت، أو لون المطر، شيء كانا يحسان بدبيب أقدامه يتقدم كنصل حاد يزرع الموت. وكان الوادي من تحتهما يمضي بعيداً وقد فقد قوته الأسطورية، كان هادئاً، يمضي إلى الجنوب، لا أحد فيهم يعرف من أين يبتدئ ولا أين ينتهي، وإن كانوا يعرفون تماماً ما يريد أن يعطيه، ويعرفون الأرض التي تحتضنه وتقبله...

كان الدبيب يقترب، ويقترب، وكان لون القمر يصفر..

ـ كان ذلك في ميناء، كنت أيامها شاباً، في يدي وريقات خضراء وحمراء، وفي أعماقي تنفجر رجولة، لم أكن قد بعت ذراعي لأحد، كنت أعمل بشرف، بعرقي وجهدي، وكنت فرحاً لأني خلفت من ورائي اليمن، لأرى عالماً جديداً، كله أضواء وصراخ وأناس، أقل ما تصورته أنهم من نوع الملائكة. في تلك الليلة، وفي ذلك الميناء، فقدت رجولتي في أحضان أول امرأة صادفتها، كانت عندها طفلة، أعطيتها بكرم كل أوراقي، وأخذت منها أكثر من رجولتي، قالت لي أشياء كثيرة، ولكني لم أفهم منها شيئاً، كنت محموماً. لقد قضيت على الباخرة ستة أشهر، هل تعرف معنى الغربة؟ لم أكن أعرفها، ولكني لقيتها على سرير تلك المرأة في تلك الليلة، قبلاتها كانت كاذبة، لم أشعر بذلك إلا في البحر، عندما استعدت ذاكرتي، وعرفتي إنني أبله، ولكني لم أنس تلك الميناء، ظللت أرسل رسائلي إليها دون أن أعرف حتى عنوانها، مجرد اسم الميناء، كان ذلك يكفي لأن أحبها. لقد نسيت حتى اسمها، وعدت إليها عدة مرات، ولكنها لم تكن هناك، لأنني عدت إليها بعد بعد ثلاث سنوات، ذلك هو الشيء الوحيد الذي سميته حباً. أعرف الآن انها خدعتني، أخذت كل شيء، كل شيء، ولكنها تركت في فمي مرارة الغربة. لقد زرعت هذه المرارة، نعم زرعتها.. أنت يا عزيزي تملك بيتاً، وحباً وأصدقاء، آه... أما أنا، فلقد عدت إلى اليمن بعد عشرين عاماً، فلم أجد أحداً، كانوا قد مضوا هم أيضاً، وجدت بعض القبور، ولا شيء غير ذلك، لكني كنت قد تغيرت بعض الشيء.. هممت بأن أعود إلى البحر، الصديق الكبير الذي لم أفقده، والذي هو مستعد دائماً لأن يحتضنني، في أية لحظة، وها أنت ذا ترى بأنني هنا وليس في مكان آخر. إنها المصادفة وحدها، أليس كذلك؟ مصادفة، أو مجرد حظ تمنيته دائماً، لقد بعت نفسي لأكثر من جيش، وأكثر من شركة، تعلمت كيف أعمل في باخرة، وتعلمت كيف أمسك ببندقية وأقتل أناساً لا أعرفهم وليس بيني وبينهم أية عداوة.. أما اليوم فلا.. إنني أعرف، ولأول مرة لماذا أنا هنا، ولماذا تقع هذه البندقية في يدي، قد لا أعرف من أقتل، ولكني أعرف لماذا أقتل، أتسمع؟ إنني أعرف ولأول مرة منذ عشرين عاماً شيئاً ما.. صور المقابر لا تزال أمامي، عدت فرحاً أحمل هدايا ونقوداً، ولكني لم أجد سوى شواهد قبور أمامي، إنني هنا أصنع شواهد قبور جديدة، وربما صنعت واحداً لنفسي.

قاطعه الصوت الآخر، فجأة: ـ لا تقل ذلك، أرجوك..

ـ الصبح يقترب، سنظل هنا معاً..

ـ نعم فنحن آخر من بقي..

ـ لا أحد يعرف، قد يكون آخرون استطاعوا مثلنا أن يشقوا لهم طريقاً وسط تلك الصخور..

ـ ربما..

من بعيد، لاح ضوء، ولكن القمر لم يكن قد غاب.

وأمامهما بعيداً، كانت خطوط تربط السماء بالأرض كانت تلوح بعيداً، وكان لها رائحة عذبة.

ـ أنظر، إنه المطر، ألا ترى لونه؟ لا أستطيع أن أصفه، ولكني أحس به إحساساً عجيباً، حتى إني لأشعر بأنني أستطيع وصفه..

ـ إنني أستطيع أن أحس برائحته، رائحة عطر ما.. كنت أبيعه في الدكان الذي عملت به.

اقترب الدبيب، كانت الأرض تخبر بذلك، واحتواهما الضوء وارتفعت أصوات وكانت طلقات، عديدة، ونار وغبار خفيف حولهما، وردد الوادي صدى الطلقات..

ـ لا تخف، سنظل معاً..

ـ وستحكي ذلك على الباخرة..

ـ نعم، سأقول لهم ما هو لون المطر في بلادي.

ـ وسأقول لهم في ـ عدن ـ ما هو طعم البرد هنا.

احتوى الجبل هدير، وكان الماء ينساب في الوادي، هادئاً، والجبال تردد الصدى، صدى الطلقات، عنيفاً.. عنيفاً..

كان يوماً عادياً.. الشمس تنام في منتصف السماء وتمد أشعتها كأذرع كسلى. والطريق نائمة فوق أرض عطشى، والشمس الباردة تبعث في أحشاء الأرض شوقاً إلى الارتواء.

وسحب بلا مطر تسير بكبرياء مضجرة، فتمدّ لها الأرض لساناً طويلاً من الاسفلت.

كنت ضجراً، وأنا أحملق في البعيد لعل غباراً ما ينبئ عن اقتراب سيارة. ولا شيء.

نظرت إلى الساعة، وابتسمت امرأة تعدت الأربعين كانت قابعة خلف بار وكانت تلاحظ قلقي، لقد مر زمن أشعر بأنه طويل. شربت مشروباً وطنياً، رفضت عرضاً لتقديم وجبة غذاء لذيذة. فأنا لا أشعر بالجوع.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، إنه فصل الأمطار في أثيوبيا، ولكن السماء كانت بلا سحب، وكان على الطريق قافلة حمير ورجال أنصاف عرايا أكل الجوع عيونهم. كانوا يسيرون وفي أيديهم عصي تمثل هزالهم، يخيفون بها الحمير، كانت المرأة تنظر إلي.. وفي البار قوارير فارغة. ولا أحد سوانا، ومجموعة من الذباب والطريق نائم وفي أحشائه كسل يولد.. إنني لا أحب الانتظار. ولكن هذه المدينة الضائعة على الطريق أجبرتني أن أمضغ كل ساعات الصباح في الانتظار.

في نفسي دافع قوي لترك البار، ولكن.. إلى أين؟

رميت بصري على طول امتداد الشارع، لا شيء سوى أبنية قديمة رصت على جانبي الطريق، ورحت أعد الذباب لعلي أقتل الوقت.. ونظرت إلى الساعة:

ـ إنك تنظر إلى الوقت بكثرة؟ إنك قلق!

نظرت إلى عينيها السوداوين:

ـ هل لديك ميعاد هام في العاصمة؟

ـ نعم...

كنت أظن أن الكلمة لن تسمع، لكن آذاناً سوداء كانت تلتقط حتى الهمسات. إنها ليست جميلة، في عينيها آثار جمال قد دفن، إنها من مخلفات الحرب الإيطالية، كل شيء قديم هنا.. حتى النساء.

على طول امتداد الطريق شمس باردة، وأناس في أبدانهم كسل أبدي وقد تراخوا حتى النهاية. حتى تلك المومس الواقفة على بابها كان ضجر يقتلها، كانت تنظر إلي عبر الشارع، وكنت شبعاً، هناك أكثر من عشرة أبواب ينام خلفها سرر وعليها آثار جرائم، وعلى السرر وعند الأبواب نساء يبعن شيئاً لكل طارق. والسرر تنادي الجميع.

عددت كل مباني المدينة، دكانان كل يقع على جانب من الطريق، ولكن أحدهما كان مغلقاً، وأربعة بارات كبيرة فاغرة فاها يمرح عند أبوابها الذباب. يقدمون هناك شراباً وأكلاً ومكاناً دافئاً للنوم مع جسد طري.

كنت قلقاً. والذباب يثيرني، وتفوهت المرأة التي بجانبي، إنني زبونها الوحيد منذ غادر المدينة «باص» الصباح.

رأيت قافلة الحمير تقف أمام مطعم صغير، ودخل الجميع فيه. هناك يقدمون شيئاً شعبياً ورخيصاً.

في طرف المدينة سوق. أمام رجال ونساء غلبهم شيء كالنعاس أكوام من البيض وأقفاص يمرح الدجاج فيها. ولم يكن هناك أي مشترٍ.

ـ لماذا أنت صامت؟

في عينيها شيء يطلب الشراء، لكني لا أرغب إلا في سيارة تحملني إلى العاصمة. قامت، ومضت إلى الباب، كانت تتفوه، وتحت شفتيها الزنجيتين لمعت أسنان كاللبن.

ـ لقد تأخر «باص» المساء.

ولم أجب عليها.

ـ ربما يكون قد غيّر طريقه!..

إنها تريد شيئاً، أن أنام هنا. وهذا شيء محال، بقدر كراهيتي للذباب أكره النوم في المدن الصغيرة الضائعة على طريق أسمرا.

نظرت إلى ساقيها، إن شيئاً جذاباً يلمع منهما، ومن خلال الساقين رأيت محطة بنزين قديمة. لقد مر الايطاليون من هنا وتركوا خلفهم الكثير من أمثال هذه الأربعينية، على ظهرها شعر أسود فيه نعومة.. وفيه خشونة، كانت لدي رغبة حادة في أن ألمسه.

ـ ألست جائعاً؟ في استطاعتي أن أقدم لك شريحة من لحم البقر.

ولم تنظر إلي.

ـ إن الشمس لا تؤذي. هذا ميعاد تساقط الأمطار كل عام.

نظرت إلى السماء، كانت فارغة، وكانت مومس قد تركت سريرها ومضت إلى السوق، كانت تضحك، وفي البعيد ثار غبار.

ـ كلا إنها سيارة صغيرة.

وسكتت لحظة.. قبل أن تضيف:

ـ قد تضطر للنوم هنا!

عادت إلى مكانها. في فمها رغبة للكلام، ونبح كلب عندما خرجت قافلة الحمير من مطعمها الصغير. كانوا يمسحون أفواههم بأذرعتهم بلذة. وفي وجوههم شبع. لكن عيونهم كانت تدمع.

مرقت السيارة دون أن تقف.

وتنهدت المرأة.

ـ إنه يوم سخيف بلا عمل.

ـ إنه يوم عادي.

تركت البار خلفي، لقد انتهت سجائري.

كان مدكاً. في فمه مضغة قات. وأعشاب أخرى تنام بين فخذيه.

ـ أريد سجائر.

لم يعد الرجل إلى مدكأه، رحت أمزق غلاف العلبة. ووقفت أمام البار سيارة نفط، وكان سائقها أسود. ابتسمت، لقد مر زمن منذ أن كان كل سائقي سيارات النفط إيطاليين.

ـ نسيت الكبريت.

مد الرجل بالكبريت قائلاً:

ـ هل أتيت لشراء طعام؟

ـ لا، لقد بعت بعض الطعام هنا.

ـ آه.

وأضاف بعد لحظات:

ـ إن الأسواق باردة.

ـ البن لا قيمة له.. أما الحبوب فميتة.

ـ لقد تأخر المطر!

ـ سيتساقط قريباً.

رأى أنني ضجر. لكنه لم يعد إلى مكانه. بدأت أنظر إليه. وبدأ فضول ينمو في أعماقي. كان قصيراً، شعرات بيضاء تملأ شعر رأسه. عيناه غائرتان، وكانت لحية صغيرة تهمس على صدغيه، لكنه كان قوياً وفي عينيه ذكاء.

ـ من أسمرا؟

ـ نعم ولكني أعمل في «ويسي».

ـ أنت ذاهب إلى العاصمة؟

كنت قد بدأت أميل إليه. ولم تعد لدي رغبة في العودة إلى البار. وسألته:

ـ هل أنتم كثيرون هنا؟

ـ من؟

ـ أقصد اليمانيين.

ـ أوه، لقد كنا في زمن الإيطاليين، أما الآن فلم نعد هنا سوى ثلاثة. صاحب ذلك الدكان المغلق وآخر يملك طاحوناً بالقرب من هنا.. وأنا.

ـ وأين ذهب الآخرون؟

هز رأسه بحزن:

ـ مات من مات منهم والبعض انتقل إلى العاصمة.. والقلة عادت إلى الوطن.

ـ هكذا.

مضت لحظة صمت. مرت سيارة كانت قادمة من العاصمة. واستمر الرجل.

ـ لقد كانت مدينة. أما اليوم.. فحتى السيارات لا تتوقف كثيراً هنا. إنها تمر بسرعة.. حتى الأعمال ماتت..

ـ ولماذا لا تغادر مع الناس؟

ولاح شبح ابتسامة على وجهه. وانطفأ شيء في عينيه...

ـ إلى أين؟

لم أجب. كنت لا أعرف إلى أين.

ـ لم يبق لدي شيء سوى هذا الدكان وعائلةً. وأحياناً أعمل في شراء وبيع الطعام. هذا إذا ما كان هناك مطر.

رحت أنفخ دخان سجائري في الهواء، كانت المومس قد عادت إلى سريرها. ورأيت نظرات مليئة بالشهوة يوجهها رجل من الباعة إليها.

وكانت تبتسم.

ـ أنت مولد؟

أجبته بهزة من رأسي.

ـ إن ذلك أهون. فأنت لا تشعر بأنك غريب.. إنك ابن البلاد.

ـ وأنت؟

وراح في إغفاءة لطيفة.. وكانت أوراق القات تغيب في فمه. ورأيت فتاة في السادسة تدلي بوجهها الطفولي عبر ألواح خشبية في قلب الدكان. كان وراء البضائع منزل ما.

كانت عيناها جميلتين. وضفائرها سوداء كالحرير، وفيها طفولة عذبة.

ـ بابا.. بابا.. أريد نعنع..

قالت ذلك باللغة الأمهرية.

ـ أدخلي وخذي ما شئت.

أجابها أيضاً بالأمهرية.

ابتسمت وأنا أرى وجهها الأبيض المرح وقبل أن تغيب بين الألواح ألقت ابتسامة تاهت في الفضاء. وسمعت صوتها الرائع يحاكي شخصاً باللغة الأمهرية.

ـ أنظري.. لقد أخذت كثيراً..

وضحكت..

ـ ألا تفهم العربية؟

هز الرجل رأسه نفياً.

ولم أسأله لماذا؟

ـ الساعة الرابعة، هل هناك أمل في أن يصل «باص» المساء؟

ـ حتى الخامسة.. هناك أمل.

عبرت الشارع امرأتان. كانتا قادمتين إلينا. على ملامحهما سرور بالحياة. كانتا تطلقان النكات وقالت إحداهما وهي تضحك بشدة.

ـ إيها أيها العربي، هل نجد عندك منديلاً أحمر؟

قام الرجل وعلى ملامحه تعب.

كانتا تملكان جسدين طريين، وكانت سيقانهما تلمع.. وكانت إحداهما تملك نهدين شابين. وكانت الشهوة تفوح من رائحة العطر الذي ملأ الدكان.. وكان الرجل يحاول الابتسام قائلاً:

ـ قسماً بجمالك أن هذا مكلف علي بدولار ونصف.

قالت إحداهما بدلال:

ـ إنك تريد أن تكسب منا الكثير (وغمزت). أنت تعرف أننا أصدقاء.

كانت نظرة مريرة قد ارتسمت على عينيه.

وضحكت الأخرى عندما همست صاحبتها بشيء ما.. وكنت أنظر الساعة.. وعيناي معلقتان بالطريق.

وارتفع صوت مبحوح. فيه لذة كل شياطين الأرض..

ـ أيها القديس جرجس أحِّر كل السيارات هذا المساء.

نظرت إليهم قائلاً:

ـ سأنام عندها في الطريق.

وضحكتا، قالت إحداهما بميوعة:

ـ هل أنت بخيل إلى هذه الدرجة؟

قال الصوت المبحوح:

ـ إن منظره جميل ويدل على أن أوراقاً حمراء تملأ جيوب بدلته.

وكانتا قد دفعتا ثمن المنديل.. وقبل أن تغادرا المحل قال الصوت المبحوح:

ـ إن منزلنا هناك، الباب الثاني إلى اليسار لا تنس، ستجد عندنا كل شيء..

وغمزت بعينها، وكانت قهقهات تملأ الطريق الضجرة..

أعوذ بالله من هذا الفساد. أيام الايطاليين كن كثيرات، ولكن كان هناك عمل. ولم يكن هناك ميوعة، أما اليوم فالفساد كثر وقل مع ذلك العمل.. أنظر في هذا الشارع وحده أكثر من عشرة بيوت للفساد.. عدا البارات.

كان هناك ظل بجانب الدكان. وحجر كبير كتب عليه بأحرف لاتينية اسم معسكر ما.. وعام ١٩٣٨، وكان على الحجر طفل في الثامنة، كان يضحك، ترك الحجر وأقبل إلي بخطوات عسكرية، وأدى التحية بحماس. ثم ابتسم. كانت عيناه جميلتين.. لكن فيهما بلها، وكانت سنه تحرس فتحة فمه حتى لا يقفل في وجه الذباب. وسمعته يهمهم. ثم عاد إلى الحجر.

ـ كم مضى عليك منذ قدمت من اليمن؟

كان يحاول أن يتذكر. ثم قال:

ـ أعتقد ثلاثين سنة أو أكثر. كنت هنا قبل أن يدخل الايطاليون. كنت أعمل مع قوافل الجمال لسنوات. كنا ننقل السلاح من الساحل حتى المناطق الجبلية ونمد الأحباش بها ليستمروا في المقاومة. قتل الايطاليون قائد قافلتنا. كان اسمه «نعمان سعيد» وتفرقنا بعد مقتله. كان رجلاً شجاعاً. لا يخاف أحداً.

وجازانا الأحباش بعد الحرب بالسجن.

هز رأسه لحلاوة الذكرى.

ـ الدنيا لا تزال بخير. فهأنذا قد انتهيت إلى هذا الركن من الدنيا. الحمد لله... لأنني لم أضع مثل بقية أصدقائي...

وقطع حديثه صوت نسائي من الداخل..

وكان الصوت حبشياً..

ـ يا حاج.. يا حاج.. أين ذهب الولد؟

أجاب بغضب:

ـ وهل أنا حارس حتى أتابعه؟

ـ يا رجل حرام عليك. إبحث عنه حتى لا يضيع أو تدهمه سيارة.

وهمهم بضيق:

ـ مشاكل.. مشاكل..

كان الطفل لا يزال على الحجر. وعيونه البلهاء تبحث عن شيئ ما وصاح الرجل بصوت مرتفع.. وبالأمهرية:

ـ يا فاطمة.. يا فاطمة.. تعالي ابحث عن أخيك أين ذهب.

رأيته يقف. وبخطوات مرتجفة اقترب من باب الدكان.

ـ ها.. أيش.. من..

كان الرجل ينظر إلى طفله بحنان..

ـ أين كنت يا منصور؟ تريد نعنع؟

هز الطفل رأسه. وكانت في وجهه آثار حزن.

وكان الشارع يخترق قلب البيوت الهزيلة والمومسات ينظرن بعيون فارغة.. ولا أحد في الطريق.

ـ ابنك؟

ـ نعم.. أهبل قليل.. ولكنه يدرس في المدرسة الحبشية..

ابتسم الطفل ببلاهة.. وقال:

ـ فوق.. في الكنيسة.. خرجنا أمس.

أقبلت أخته الصغيرة وأخذت تجره من يده.

ـ أوف.. أوف.. أنت مجنونة..

ومضى خلفها ضاحكاً.

ـ لماذا تحدثهم بالأمهرية؟ أليس الأفضل لو تعلموا لغتهم العربية؟

كان صمت. وكان حزن. وكانت الشمس ترتفع بعيداً. وصوت محرك سيارة يصل إلى أذني من بعيد.

ـ الجميع هنا يتحدثون بالأمهرية. مع مَن إذن يمكن التحدث بالعربية؟ نحن اليمانيين هنا لا نلتقي إلا نادراً. وأنا قد تعبت فلم أعد أذهب إلى العاصمة بكثرة. وكلنا هنا يتحدث بالأمهرية. والمدارس أيضاً.

وأطلق ضحكة.

ـ لقد بدأت شخصياً أنسى العربية.

وكان ما يقوله صدقاً. فقد استعمل في كل حديثه معي كلمات حبشية كثيرة.

كان الباص قد توقف أمام البار.

مددت يدي مودعاً.

ـ أتمنى لك حظاً سعيداً.

وهز رأسه شاكراً.. وقبل أن أصل إلى الباص عدت إليه قائلاً:

ـ ألا تفكر في العودة إلى اليمن؟

فكر طويلاً وقال:

ـ اليمن.. لقد نسيتها. إنني أنتظر الموت فقط. لن يعرفني أحد هناك إذا عدت. ثم.. ما الذي سأحمله لهم بعد غياب عمر كامل ؟ لا.. سوف أبقى هنا حتى النهاية.. لا أحد بقي معي هناك. لن أعود.. قد يعود أبنائي يوماً ما إذا عرفوا أن أباهم كان غريباً.. وقد لا يعودون. قد يظلون مثلي غرباء.

كانت دمعات تطفو على جفونه.

هممت بأن أغادر. لكن شيئاً كان يجذبني إلى هذا الرجل القصير ذي العينين الفاترتين والابتسامة التي فقدت معنى الأمل.

كان وجهه يبدو أمامي. واللسان الطويل يمتد إلى العاصمة. لقد مر الايطاليون من هنا. ومن هنا مرت جمال كان يصحبها يمانيون. كانت الشمس ترتفع إلى السماء.. باردة. وموسم الأمطار أخلف وعده.. والطريق الحزين.. يضم مدناً ضائعة وقوماً ضائعين.. وكان أحدهم ضائعاً في مدينة صغيرة على طريق أسمرا.. ضائعاً دون أمل.